عَليٌّ (عليه السلام) وَمُناوِئُوه

الدكتور نوري جعفر

قدم له : الاستاذ عبد الهادي مسعود

بوزارة الثقافة والارشاد القومي ومدير الفهارس العامة بدار الكتب المصرية

راجعه وعلق عليه

السيد مرتضى الرضوي مؤلف كتاب مع رجال الفكر في القاهرة

مطبوعات النجاح بالقاهرة

كلمة مجلة الموسم وجريدة المساء القاهريتين	4
التقديم بقلم الأُستاذ عبد الهادي مسعود	10 - 5
مقدمة المؤلف ، وفيها نتائج البحث ، ملخصه	15 - 11
القسم الاول ـ قصة الخلافة 11 ـ 35 هـ	132 - 16
1 ـ الفصل الأول : مسألة الوصية	48 - 17
2 ـ الفصل الثاني : حديث السقيفة	122 - 39
(أ) أبو بكر الصديق 11 ـ 13 هـ	60 - 39
(ب) عمر بن الخطاب 13 ـ 23 هـ	86 - 61
(ج) عثمان بن عفان 23 ـ 35 هـ	129 - 87
3 ـ الفصل الثالث : خلافة الإمام 35 ـ 40 هـ	132 - 130
القسم الثاني ـ قميص عثمان	134 - 133
1 ـ الفصل الرابع : الناكثون ـ أصحاب الجمل 36 هـ	154 - 135
2 ـ الفصل الخامس : القاسطون ـ أصحاب صفين 37 هـ	167 - 155
3 ـ الفصل السادس : التحكيم ، المارقون ، ومصرع الإمام 8 ـ 40 هـ	182 - 168
القسم الثالث ـ بين علي معاوية	183 - 183
1 ـ الفصل السابع : مقتطفات من سيرة الإمام	184 - 184
1 ـ فلسفة الحكم	187 -185
2 ـ حرصه على بيت المال	189 -188

3 ـ تواضعه وعدله 190 - 190
4 ـ تحليل لسياسته العامة 191 - 192
5 ـ بعض أقواله المأثورة 193 - 196
6 ـ ما ينطبق عليه من آي الذكر الحكيم 197 - 197
2 ـ الفصل الثامن : نماذج من تصرفات معاوية 198 - 198
1 ـ مأساة حجر بن عدي 199 - 202
2 ـ نماذج أُخرى من غدر معاوية
204
3 ـ إلحاقه زياد بن أبيه بأبي سفيان 205 - 208
4 ـ أقواله المأثورة 209 - 211
5 ـ معاوية في الميزان 212 - 216
6 ـ ما ينطبق على تصرفاته من القرآن 217

(3)

بسم الله الرحمن الرحيم

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

(4)

كلمة مجلة المسلم وجريدة المساء القاهرية

حول كتاب : « علي ومنائوه »

في رحلتي الى القاهرة عام 1394 هـ موافق 1974 م لنشر كتابي « مع رجال الفكر في القاهرة » كنت قد راجعت كتاب : « علي ومناوئوه » للدكتور نوري جعفر وعلقت عليه في الهامش بعض التعاليق التي كان يجب التنبيه عليها والاشارة اليها وكنت اهملتها في الطبعة الثانية لضيق الوقت آنذاك وهذه الطبعة هي الطبعة الثالثة كما تجدها كاملة والحمد لله .

وقد نشرت مجلة المسلم الغراء في عددها الرابع في السنة الخامسة والعشرين الصادر في ذي القعدة عام 1394 هـ الكلمة التالية :

علي ومناوئوه :

اصدر السيد الرضوي في سلسلة مطبوعات النجاح بالقاهرة كتاب : « علي ومناوئوه » للدكتور نوري جعفر بتقديم الاستاذ عبد الهادي مسعود وبتعليق السيد مرتضى الرضوي ، وهو حديث مفصل عن الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية بتحقيق حديث في نحو مائتي صفحة من القطع الكبير ، وطباعة فيها عناية واضحة ، واهتمام بالغ .

وقد نشرة جريدة المساء القاهرية في عددها الصادر يوم السبت 28 ديسمبر عام 1974 م الكلمة التالية :

مكتبة النجاح في طهران اصدرت بحثا تاريخيا عن الامام علي ـ رضي الله تعالى عنه في تعليق السيد مرتضى الرضوي وتقديم العالم الاسلامي المصري عبد الهادي مسعود .

الكتاب في مائتي صفحة ويتناول تاريخ صدور الاسلام ، وما كان بين رجال الشورى واهل الحل والعقد بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعرض لنا المؤلف خاصة ما دار من حروب بين علي ومعاوية وبين اهل العراق واهل الشام وما كان من مقتل علي وتولي معاوية للخلافة من بعده فانتقل نظام الحكم في الاسلام من الشورى والاجماع الى حكم السيف والقوة ، والاستبداد .

(5)

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان من واجبي ان اعترف على نفسي بالتقصير او القصور ، اذ كتبت ترجمات عديدة عن شخصيات اوربية او اجنبية ولم اتمكن من الكتابة عن عظماء التاريخ الاسلامي ، وعلى رأس هؤلاء الامام علي عليه السلام .

ولم يكن بد ـ كما يحدث غالبا ـ ان القي بظلال هذا العتاب على الظروف والملابسات التي مرت ولاتزال تمر بي لأدفع عن نفسي هذا القصور والتقصير امام جمهور احبه كل الحب ـ بل احبه الى حد العشق ـ وهو جمهور القارئين في الاقطار العربية والاسلامية الشقيقية .

وتقدم الى الاستاذ مرتضى الرضوي لاكتب مقدمة لكتاب الدكتور نوري جعفر : « علي ومناوئوه » ، وكان ذلك في منتصف شهر شعبان 1394 هـ الموافق اواخر الشهر الثامن اغسطس 1974 م ، فقلت مالنا ومناوئيه ولست منهم ولاشك ايها القارىء الكريم ، كما وانني لست منهم على التحقيق ، ولقد اقبل الموسم القضائي ـ ايها الصديق المرتضى ـ ولنا فيه معارك على ساحة مجلس الدولة ، مما قد يشغلنا عن كثير مما يتوجب بذل الجهد والوقت فيه من قضايا الفكر والعقيدة والايمان .

كنت اتوق الى الكتابة عن الامام عاي بن ابي طالب ـ منذ امد بعيد ـ وهو اول فتى في الاسلام وفارس فرسانه ، وكنت ولازلت اتوق لان تكون الكتابة عنه تمهيدا لي وتمهيدا للقراء ان اكتب عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

(6)

والكتابة عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب كتابة عن الايمان وكتابة عن الحكم الاسلامي في ظل الايمان ، وكتابة عن الاسلامية الصحيحة ، ودفاع عن المسلمين على مر العصور ، من حضر منهم في عهد علي عليه السلام ، ومن حضر بعده او قبله ، منذ نزلت الرسالة على رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

كان عليّ ان انتظر سانح فرصة .. لأسجل بعض ما خطر في ذهني عن هذا الرجل العظيم .

وكان علي بن ابي طالب عليه السلام كما ورد في « الاصابة » : قد اشتهر بالفروسية والشجاعة والاقدام فهل كانت شهرته قاصرة على هذا المجال فحسب ؟ !

لقد اجمع الرواة ـ وترى ذلك متواترا طبقة عن طبقة ـ أن علي بن ابي طالب هو اول فتى دخل في الاسلام ، وسارت الركبان بهذا الحديث يسوقونه على انه ميزة لعلي ، بمعنى انه لم يعش الجاهلية ، وانما يكاد يكون مسلما ـ منذ ادرك ـ فهل كانت هذه هي ميزته فحست ؟ !

كان علي ابن عم الرسول الاعظم ومتبناه .

وكان علي اخا لرسول الله والرسول اخوه ـ كما يروي الرواة الثقات ـ نقلا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه ، حيثما كان يتحدث عن ابن عمه علي .

وكان بمنزلة هارون من موسى ، غير انه لم يكن ثمة نبي بعد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان هو وزير النبي وخليفته من بعده (1) .

---

(1) انظر المستدرك على الصحيحين 3 / 109 ، مسند الامام احمد 4 / 281 ، الطبعة الاولى ـ خصائص الامام علي للحافظ النسائي ص 21 طبعة مصر ـ تفسير الفخر الرازي 13 / 48 ـ 49 ، اسباب النزول للواحدي 135 طبعة مؤسسة الحلبي ـ حياة محمد للأستاذ محمد حسين هيكل الطبعة الاولى ص 104 ـ جريدة السياسة المصرية ملحق عدد 2751 .

---

(7)

وتلك نصوص قاطعة عن الرسول ، قاطعة الدلالة على امامة علي ، فهل تكفي هذه الاشارات اللامحة للكشف عن احقيته في الامامة عليه الاسلام ؟ !

قال ابن مسعود في شأن الامام : « كنا نتحدث عن ان افضل اهل المدينة هو علي » .

بل ان عمر نفسه كان يتعوذ من معضلة ليس لها ابو الحسن ، وكان يقول : « لولا علي لهلك عمر » .

وهناك جوانب اخرى عديدة يجب ان نجليها لانفسنا وللعالم كله على السواء ...

لقد نقض بعض الذين بايعوا عليا ، ونقضوا ما عقدوا عليه العزم وكانت الحروب بين المسلمين ان انتهى صراعها بانتصار الاقوياء ، ولم تنته المعارك بانتصار الحق ، اذ لو انتصر الحق لكان علي ـ عليه السلام ـ هو الحقيقة المجسدة ، وكان نصره فوق كيد الكائدين ، وقوة المال والسلاح ، وسطوة البغي والغرض ، والدهاء والاغراء .

ولأمر ما اراد الله ان تدخل دولة المسلمين في محنة كبرى ، ولما تستقر اصول الاسلام في نفوس الناس ، ولاسرت روحه في دمائهم على الوجه الذي كنا نظنه في اول دراسة لنا لقضية صدر الاسلام ، ومن المعلوم الذي يجب ان يكون بديهة في نفوس الباحثين ان نعلم ان الاسلام هو صحوة المستقبل للعالم كله ، ولم يكن ـ كما كنا نتخيل احيانا ـ دعوة الزمن الذي ظهر فيه وحده ... لان اطاره المكاني هو العالم كله ، والاطار الذي يتحرك من خلاله ـ من حيث الازمنة والعصور ـ هو كل الازمنة وكل العصور ، منذ ظهر الرسول ـ صلوات الله عليه ـ حتى يرث الله الارض ومن عليها .

ولقد علمنا من الصراع بين علي عليه السلام وبين معاوية ان السلطة قد انتقلت الى معاوية بن ابي سفيان بن حرب ... وامه هند آكلة الاكباد .. التي نهشت جسد عم الرسول حمزة عليه السلام ، وفلقت رأسه .. واكلت كبده .. شفاء لحقدها على الرسالة واهلها ـ حينذاك ـ واستبد معاوية بالناس ، واحال

---

(8)

الخلافة ملكا عضوضا ، واستحصل من الناس ـ جبرا وقسرا ـ على عهد لابنه « يزيد » .. ونحن نعلم من هو « يزيد » وما كان عجبا ان يكون هو « يزيد » لانه وارث القسوة والفجر ، ومستمد الفساد من شجرة الفساد .. والعرق دساس ... ونحن لانجري الابحاث ـ مع الاسف الشديد ـ عن شجرة الرجال ، واصول الرجال .

لقد عمل اليهود ـ من خلال كل الجهود ـ على تدمير علم الانساب لتختلط العائلات ويمكن من خلال هذا الاختلاط ان يندس في وسط كل قطر من اقطار الاسلام طبقة من اليهود يدعون الاسلام ليفسدوا فيه ، وكانوا يناصرون كل من يدعو للفتنة .

ولكن بنية الاسلام القوية رغم كل ما مر بها لم تتوقف عن النماء ولم يزعزع عقيدة الاسلام ما مارسه بنو امية من طغيان .

ولقد احاط المفسدون بحكام الدولة الاسلامية ليحولوا بينهم وبين كل اصلاح ... محاولين ايقاع الفتنة في دولة المسلمين .

لقد قيل : ان بناء الجماعة تصدع على عهد علي ، ومن قبله كان الثائرون يحاصرون بيت عثمان ، فهل قرر هذا او ذاك : مصير الاسلام والقرآن ؟ !

ان هذا الدين الخالد مر بهذه المحنة وبغيرها من المحن وخرج منها اقوى مما كان من قبلها . ذلك ان بنية العقيدة اقوى من ان تحطمها الرضوض والآلام .

اكلت الحروب بين علي وخصومه عددا كبيرا من المسلمين ولم يكن متوقعا ان يحدث ذلك على وجه من الوجوه ، الا ان اتساع الملك والسلطان كان يقتضي ذلك ، وكان يقتضي غيره من الوان الصراع ... وكانت هذه المحن - في رأيي - هي درجة الغليان التي احاطت بالدين الجديد فحفظت الشعب ان ينهار امام الحضارات المجاورة ، وامام الفتوحات الوسيعة المدى ، بما تحتويه من افكار جديدة ، واتجاهات متعددة مختلفة الالوان والاحجام .

---

(9)

ان علينا ان ندرس كل اولئك حين ندرس شخصية هذا البطل العظيم في تاريخ الاسلام علي بن ابي طالب عليه السلام .

وعلينا ان نعلم : ان انفصام عرى الوحدة بين المسلمين ، وتفرقهم في الآراء والمذاهب والاحزاب ؛ كل ينصر رأيه بالقول وبالعمل على رأي خصمه ، وكل يصارع في سبيل عقيدته هذه او تلك بالفكرة حينا وبالسلوك احيانا ، وعلينا ان ندرك ان هذا كله وغيره ليس الا دلائل صحة ، لا دلائل وهن او هزيمة ، وان الصراع دائما يدل على اليقظة لا على الموت ، ما دام لا يفضي الى انشقاق في صفوف الامة ، او مواجهة عدائية بين الطوائف .

وقد اكتمل الدين حينما اكتمل نزول القرآن ، ولقد كان الاسلام على عهد الرسول دعوة وفكرة - اكثر منه دولة وسلطانا ، واذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد اقام دولة على اساس من التشريع القرآني ، فقد كانت دولة صغيرة الحدود على اية حال ، ولكنها كانت نوية قوية ، قابلة دائما على النمو والازدهار ، وبقي ان تكتمل الدولة بعد ذلك فتوسع من آفاقها وتنشر من سلطانها على هذه الاسس السليمة ، كانت نواة في مثل صلابة « الجرانيت » يحمل لواءها نفر من المؤمنين الاتقياء لا يبالون اين يكون الموت ، اذ هو - عندهم - دور من ادوار الحياة ، ومرحلة من مراحل الوجود ، فهم لا يخشون شيئا ولا احدا ولا دولة من الدول ، ولاحكومة من الحكومات ، وانما يذيعون نظريتهم في مجال الفكر وفي مجال التطبيق على السواء ، وقد بدأ صفوة المسلمين - وعلى رأسهم - علي عليه السلام يتوقون الى بناء الدولة الوليدة ، على اساس من النظرية والعقيدة ، واختلفت الآراء بين الصفوة وبين عامة من المسلمين ، ممن لم تتدخل العقيدة في مسرى دمائهم ...

كانت الدولة وليدة في المهد ، وقد تعرض والوليد لكل ما يتعرض له الوليد من محن تكبر في عينه هو ، وان صغرت في عين الزمن ، الذي اثبت دائما ان البقاء للاصلح ، وان الخلود للايمان.

مرت دولة المسلمين في محنة كبرى فآذت المحنة دولتهم ، ولم تنل من دينهم ، وللنشأة الجديدة ثورات وحركات وصراعات ، سنرى جوانب منها حين ندرس الامام ، وما احاط به ، وبالمسلمين من حوادث ، واحداث ...

وسنرى جوانب منها حين نطالع صفحات هذا الكتاب .

عبد الهادي مسعود

القاهرة في

18 شعبان 1314هـ

5 سبتمبر 1974 م

مقدمة المؤلف

خالجتني فكرة البحث في هذا الموضوع منذ زمن بعيد ، غير ان امورا كثيرة قد حالت - مع الاسف الشديد - بيني وبين اخراجها الى حيز الوجود ، وعند ما قررت الحكومة العراقية اعفائي عن الخدمة - بالشكل المعروف - ساورني الم وامتعاض شديدان ، فطفت ابحث عن وسائل تعينني على التعبير عن ذلك الالم وهذا الامتعاض ، وما هذه الدراسة في جوهرها الا احد الجوانب الايجابية لذلك التعبير ، وقد شجعني على ذلك عامل اشار اليه ابو جعفر ابن ابي زيد نقيب البصرة قبل زهاء سبعمائة عام ذكره ابن ابي الحديد حين قال : « قلت لابي جعفر النقيب ما سبب حب الناس لعلي .. دعني في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة ؟ ... فضحك وقال ... ان اكثر الناس موتورون في الدنيا . اما المستحقون فلا ريب في ان اكثرهم محرومون ! نحو عالم يرى ان لاحظ له في الدنيا ، ويرى جاهلا غيره مرزوقا وموسعا عليه ، وشجاع قد ابلى في الحرب .. وليس له عطاء يكفيه .. ويرى غيره - وهو جبان - مالكا لقطر عظيم .. وعاقل سديد التدبير قد قدر عليه رزقه ، وهو يرى غيره احمق مائقا تدر عليه الخيرات .

فاذا عرفت هذه المقدمة فمعلوم ان عليا كان مستحقا محروما ، بل هو امير المستحقين المحرومين .

ومعلوم ان الذين ينالهم الضيم يتعصب بعضهم لبعض .. وعلي رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل .. وهو مع ذلك محروم محدود قد جرعته الدنيا علاقمها .. وعلا عليه من هو دونه .. ثم كان في آخر الامر ان قتل هذا الرجل الجليل في محرابه ، وقتل بنوه وسبي حريمه ونساؤه ، وتتبع اهله وبنوه بالقتل والطرد والتشريد والسجون ، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وانتفاع الخلق بهم » (1) .

---

(1) يدنف : اي يجهز عليه بالقال .

طفقت اذن ابحث في هذا الموضوع المعقد الشائك ، وقد انار امامي سبيل البحث كبار المؤرخين المسلمين من حيث

تدوين الوقائع التاريخية ، كما انار سبيلي كذلك ـ من حيث تحليل تلك الحوادث وتفسيرها ـ فريق من الكتاب المصريين المحدثين ، فانقسمت هذه الدراسة من حيث وحدة موضوعها الى ثلاثة اقسام :

بحثت في القسم الاول منها : قصة الخلافة بثلاثة فصول ، تطرقت في الفصل الاول الى مسألة الوصية ، وفي الفصل الثاني الى حديث السقيفة الذي بدأ ـ على ما ارى ـ والرسول مسجى على فراش الموت ، وانتهى بمقتل عثمان ، لا بخلافة ابي بكر كما هو معروف ، وبحثت في الفصل الثالث خلافة الامام .

اما القسم الثاني من الكتاب فيتضمن البحث فيما سميته « قميص عثمان » ـ ويقع في ثلاثة فصول ايضا ، تطرقت في الفصل الاول منها الى حركة الناكثين ـ اصحاب الجمل .

وفي الفصل الثاني الى تمرد القاسطين : اصحاب صفين .

وفي الفصل الثالث الى مسألة التحكيم وخروج المارقين ومصرع الامام .

لقد ساقني البحث ـ في معرض التحدث عن قميص عثمان ـ الى الاعتقاد بأن الصراع بين علي ومناوئيه ما وهو في جوهره الا صراع بين فلسفتين : فلسفة خلقية مثلي ـ تستمد اصولها من القرآن وسنة الرسول ـ سار عليها الامام في حكمه ، وفلسفة ملتوية غادرة ـ تستمد مقوماتها من حياة العرب في جاهليتهم ـ انغمس فيها مناوئوه الى الاذقان .

ولعل الصراع بين علي ومناوئيه يعيد الى الذاكرة قصة الصراع الذي حدث بين النبي وكفار قريش تحت زعامة الامويين . واذا كان النصر قد كتب للنبي في نزاعه مع مناوئيه لاعتصامهم بالاوثان فان النصر لم يكن في متناول الامام لتقمص مناوئيه (1) رداء الاسلام .

---

(1) معاوية ومن هم على شاكلته ، ومن المحزن حقا ان يتخذ بعض الناس من هؤلاء ابطالا يدرسون سيرتهم للناشئة في الوقت الذي يريدون من تلك الناشئة ان تتحلى بمكارم الاخلاق التي جاء بها الدين الحنيف ، فالاستقامة التي يدعو اليها الدين ، والغدر الذي سار عليه معاوية ضدان لايجتمعان .

فكان خصوم الرسول المندحرين من الامويين ومن هم على شاكلتهم قد حاربوا ابن عمه بعقائد آبائهم الكامنة وراء ستار الاسلام . فمعاوية ـ مثلا ـ هو ابن هند آكلة الاكباد ، وابوه ابو سفيان اول المشركين في كل حرب ، ورأسهم في كل فتنة ، لم ترفع على الاسلام راية الا وكان صاحبها. تظاهر بالاسلام غير منطو عليه ، واخفى الكفر غير مقلع عنه ، ويلوح لي ان غدر معاوية قد اصاب روح الاسلام قبل ان يصيب ابا تراب (1) . فقد انفسح باغتيال علي المجال واسعا امام قوى الشر التي حبسها الامام في نطاق ضيق من خشية الله ، ومبادىء الدين الحنيف . فتلاشت من القلوب حرارة الايمان التي كانت تجمع بين قلب الخليفة الكبير وقلوب رعاياه . واستهان الولاة والحكام بتطبيق مبادىء الاسلام على شئون الحياة ، وعمدوا الى كسب ولاء الناس بوسائل فاسدة من الرشوة والملاينة ، او الارهاب والتجويع . فذرى روح الاسلام وانطوت مبادئه على نفسها بدلا من ان تسير في طريق التوسع والانتشار . وكانت حصيلة ذلك انتشار التذمر والالحاد في جسم المجتمع العربي وتدني المستويات الخلقية الرفيعة بين الحكام والمحكومين على السواء . فبرز الاستهتار والظلم والخروج على القرآن ، وتعاليم الرسول من جهة الحاكمين ، والانقياد والملق والنفاق من جهة الرعايا . واختفى القائلون بالحق وراء سحب المطاردة والاضطهاد . فأصبح المطالبون بحقوقهم « زنادقة » و « ملحدين » و « رافضة » وصار الوصوليون والمنافقون اصحاب الحظوة والكلمة النافذة ، فجريرة معاوية ـ اذن ـ اكبر

من مجرد غدره بالامام لانها اصابت صرح الاسلام من حيث هو نظام للحكم ومجموعة من المثل العليا ومكارم الاخلاق .

ذلك ما يتصل بالقسمين الأول والثاني من هذه الدراسة .

اما القسم الثالث فيروي للقارىء مقتطفات من سيرة الامام ـ رواها كبار المؤرخين المسلمين ـ ونماذج من سيرة معاوية اثناء نزاعه مع الخليفة . وبما اني كتبت هذا البحث متأثرا بالمثل العليا التي جاء بها محمد ؛ والتي حرص عليٌّ على تطبيقها في الحكم ـ وبخاصة ما يتصل منها بتوزيع العدالة الاجتماعية بين الناس وبالتحلي بمكارم الاخلاق .

---

(1) لامجال للتفكيك بين الاسلام وعلي عليه السلام « الناشر » .

فلا عجب ان وجدني القارىء انتقد الذين خرجوا على تلك المثل في الاقوال وفي الاعمال من الحكام والامراء والولاة .

قال تعالى في سورة آل عمران : « ان الذي يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط بين الناس فبشرهم بعذاب اليم . اولئك الذين حبطت اعمالهم في الدنيا والاخرة وما لهم من ناصرين 3 : 21 ، 22 » .

وذكر مسلم بن الحجاج في صحيحه بأسانيد مختلفة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى ينزعها : اذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ؛ واذا وعد اخلف ، واذا خاصم فجر » (1) .

والمنافقون ؛ كما وصفهم الله في سورة المنافقين الاية : 3 « اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون » .

وسوف نتخذ هاتين الآيتين والحديث الآنف الذكر مقياسا للحكم على علي ومناوئيه اثناء البحث في « قميص عثمان » .

حق وباطل ، ابديان سرمديان . لكل زمان حقه وباطله . ولكل زمان علي ومناوئوه .

بغداد في : 1/ 1 / 1956

نوري جعفر

---

(1) انظر صحيح مسلم ج 1 ص 42 .

القسم الاول

---

1 ـ الفصل الاول : مسألة الوصية

2 ـ الفصل الثاني : حديث السقيفة

أ ـ ابو بكر الصديق (11 ـ 13 هـ)

ب ـ عمر بن الخطاب (13 ـ 23 هـ)

ج ـ عثمان بن عفان (23 ـ 35 هـ)

3 ـ الفصل الثالث : خلافة الامام (35 ـ 40 هـ)

مسألة الوصية

الخلافة ـ بنظر فريق من المسلمين ـ مركز ديني ودنيوي في آن واحد . فهي دينية من حيث كونها تستند الى تعاليم الاسلام في تصريف شئون الناس فيما يتعلق بصلاتهم في جميع مظاهرها من جهة ومن حيث كون صاحبها معصوما من الخطأ كعصمة الأنبياء عالما بجميع أمور الدين ومن جهة اخرى ، وهي دنيوية فيما يتصل بكون الخليفة شخصا لا ينزل عليه الوحي ؛ وانما هو مكلف ، بنص من النبي ووحي من الله بالمحافظة على تعاليم الدين وتطبيقها على سنن الحياة والنهوض بالرسالة النبوية وبثها بين البشر كافة .

فالخلافة على هذا الاساس ظاهرة تأتي بعد مرتبة النبوة مباشرة في القدسية والاهمية ؛ فلا غرابة والحالة هذه ، على ما يقول حملة هذا الرأي ، ان امر الله نبيه محمدا بالنص على ولاية خليفته من بعده : وهذا الخليفة هو الامام علي بن ابي طالب غير ان قسما من المسلمين ـ حسب وجهة النظر هذه ـ قد سلب الامام عليا حقه في الخلافة حينما نقلها منه الى غيره من الصحابة ، ولكن الامام عليا ـ مع هذا بنظر هؤلاء ـ هو الخليفة الحقيقي للمسلمين بعد الرسول ، وان لم يمارس منصبه هذا بحكم طبيعة الظروف التي عاش فيها .

والاساس الذي يستند اليه هذا الفريق من المسلمين في اعتباره الخلافة منصبا دينيا ؛ هو ان الرسول ، بعد ان فارق الحياة الدنيا تاركا تعاليمه الدينية . كان لابد له من تولية شخص يأتي من بعده في الكفاءة والخلق ليقوم بتصريف امور الناس ـ وذلك لان الغاية من نزول الدين ليست محصورة على تطبيقه في عهد الرسول وبين قريش او العرب وحدهم ، ولابد لتطبيق تعاليمه بعد وفاته من شخص كما ذكرنا ، اقرب الناس اليه من حيث فهمه لاصول الدين واتصافه بمتانة الاخلاق .

وليس من المعقول ان يترك امر المسلمين ، بعد وفاة الرسول ، الى الصدف والظروف في هذه المسألة الحيوية التي يتوقف عليها مصير الشريعة السمحاء من حيث التطبيق والانتشار . وان قصة اختيار المسلمين لخليفتهم بعد النبي ، امر على جانب كبير من الخطر والمجازفة .

فمن هم الذين يوكل اليهم اختيار الخليفة الجديد ؟ هل هم جميع المسلمين ؟ ام فئة خاصة منهم ؟ ما خصائص هذه الفئة ؟ هل هي مقصورة على ابي بكر وعمر وابي عبيدة في بادىء الامر ونفر من الانصار اجتمعوا في السقيفة كما سنرى ؟ اليس استبعاد علي وبني هاشم وسعد بن عبادة وابنه ، وسلمان الفارسي ، وابي ذر الغفاري ، والمقداد بن الاسود ، وعمار بن ياسر والزبير بن العوام وخالد بن سعيد ، وحذيفة بن اليمان وبريدة وغيرهم « وهم من خيرة اصحاب النبي » بجعل الخلافة ، وفي حالة اقتصارها على رأي فئة خاصة من الصحابة ، غير كاملة الشروط ؟

هل يمكن ان يتوصل المسلمون الى اختيار افضلهم للخلافة مع ما بينهم من احقاد وعنعنات قبلية جاهلية لم يستأصلها الاسلام كما سنرى ؟

هل كان الرسول راغبا في اثارة تلك العصبيات ؟

كيف يجري اختيار الخليفة : بالتصويت الشفوي ؟ ام بالكتابة ؟

كم من المسلمين يستطيعون ان يقرأوا ويكتبوا آنذاك ؟

اين يجري الانتخاب ؟ افي الحواضر والبوادي ؟ وكيف يمهد لذلك الانتخاب ؟ وكم يستغرق من الوقت ؟ وكيف تصرف شئون المسلمين اثناء فترة الانتخاب

تلك اسئلة محيرة ... ؟

لقد مر بنا ذكر رأي فريق من المسلمين في قضية خلافة الرسول . وقد لخص احد الباحثين موضوع الخلافة والوصية من وجهة النظر هذه بقوله (1) :

---

(1) عبد الحسين احمد الاميني النجفي « الغدير في الكتاب والسنة والادب » الطبعة الاولى مطبعة الغري في النجف ؛ 1945 م ، ص 8 - 11 .

« اجمع رسول الله الخروج الى الحج في سنة عشر من مهاجره ، وآذن في الناس بذلك . فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به في حجته تلك التي يقال عليها : حجة الوداع ... ولم يحج غيرها منذ هاجر الى ان توفاه الله ...

ولما قضى مناسكه وانصرف راجعا الى المدينة .. ووصل غدير خم من الجحفة التي تتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين ، نزل عليه جبرائيل عن الله يقول : « يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك (1) » .. وامره ان يقيم عليا علما للناس ..

ثم قام الرسول خطيبا .. واخذ بيد علي فرفعها .. فقال : ان الله مولاي وانا مولى المؤمنين .. والولاية لعلي ، من كنت مولاه فعلي مولاه (2) .. ثم نزلت الآية : « اليوم اكملت لكم دينكم » (3) .

فقال رسول الله :[الحمد لله](4) على اكمال الدين واتمام النعمة ... والولاية لعلي من بعدي » .

ومن الطريف ان نذكر هنا ان المقريزي (5) قد اشار الى احتفال قسم من المسلمين القدامى بذكرى عيد الغدير حين قال :

« اعلم ان عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا ، ولا عمله احد من سالف الامة المقتدى بهم ، واول ماعرف في الاسلام بالعراق ايام معز الدولة علي بن بابويه ، كان احدثه في سنه اثنتين وخمسين وثلثمائة ، فاتخذه الشيعة من حينئذ عيدا ، واصلهم فيه ماخرجه الامام احمد في مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب قال :

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفرتنا فنزلنا بغدير خم ونودي :

---

(1) المائدة : الاية 67 .

(2) انظر « عبقات الانوار » مجلد حديث الولاية .

(3) المائدة : الاية 3 .

(4) ما بين المعقوفين سقط من الاصل . (الناشر)

(5) الخطط 1/ 288 - 389 .

الصلاة جامعة ، وكسح لرسول الله تحت شجرتين فصلى الظهر ، واخذ بيد علي بن ابي طالب فقال : الستم تعلمون اني اولى بالمؤمنين من انفسهم ؟ قالوا : بلى .. قال :

من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . قال :

فلقيه عمر بن الخطاب فقال : هنيئا لك يا ابن ابي طالب اصبحت مولى (1) كل مؤمن ومؤمنة . (وغدير خم) على ثلاثة اميال من الجحفة يسرة الطريق وتصب فيه عين وحوله شجر كثير .

ومن سننهم في هذا العيد وهو ابدا اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ان يحيوا ليله بالصلاة ويصلوا في صبيحته ركعتين قبل الزوال ، ويلبسوا فيه الجديد ويعتقوا الرقاب ، ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح .

ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق ارادت عوام السنة مضاهدة فعلهم ونكايتهم فاتخذوا في سنة تسع وثمانين وثلثمائة بعد عيد الغدير بثمانية ايام عيدا اكثروا فيه من السرور واللهو وقالوا :

هذا يوم دخول رسول الله الغار هو وابو بكر .

وبالغوا في هذا اليوم في اظهار الزينة .. ولهم في ذلك اعمال مذكورة في اخبار بغداد !! » (2) .

والخلافة . بنظر فريق آخر من المسلمين : مركز دنيوي صرف من حيث وجوده ، وان كان مبنيا على الدين من حيث الاسس النظرية التي ينبغي ان يسير وفق مستلزماتها ، وعلى هذا الاساس فليس هناك نص صريح من جانب الرسول على توليته خليفة للمسلمين ، لانتفاء الضرورة الدينية الى ذلك .

---

(1) وفي نسخة : مولاي ومولى .. الخ . (الناشر) .

(2) يراجع : سيرة ابن هشام ، والسيرة الحلبية ، والبخاري ، وعيد الهجرة : في ربيع الاول .

حديث السقيفة

أ ـ أبو بكر الصديق

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول :

ان عليا كان مهيئا للخلافة بعد الرسول ، هذا اذا نظرنا للخلافة من جوانبها الزمنية ، وان صلاته بالرسول وبالاسلام ، وصلات الاسلام والرسول به تؤهله لذلك .

ولو احتج المسلمون اثناء السقيفة بعد وفاة النبي : « ان عليا كان اقرب الناس اليه ، وكان ربيبه ، وكان خليفته على ودائعه ، وكان اخاه ـ بحكم تلك المؤاخاة ، وكان ختنه وابا عقبه ، وكان صاحب لوائه ؛ وكان خليفته في اهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون من موسى بنص الحديث عن النبي « ص » نفسه .

لو قال المسلمون هذا كله واختاروا عليا بحكم هذا كله لما ابعدوا ولا انحرفوا .

وكان كل شيء يرشح عليا للخلافة ... قرابته من النبي ، وسابقته في الاسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه في سبيل الله ، وسيرته التي لم تعرف العوج قط ، وشدته في الدين ، وفقهه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه » (1) .

وقد لخص ابن حجر العسقلاني اهم خصائص الامام حين قال : (2)

علي بن ابي طالب .. اول الناس اسلاما في قول كثير من اهل العلم ، ربى في حجر

---

(1) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » 152 ، 153 .

(2) الاصابة في تمييز الصحابة 2 / 501 ، 502 .

النبي ، ولم يفارقه ، وشهد معه المشاهد الا غزوة تبوك ، فقال له بسبب تأخيره له بالمدينة :

الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى ...

وكان لواؤه بيده في اكثر المشاهد . ولما آخى النبي اصحابه قال له : انت اخي . ومناقبه كثيرة حتى قال الامام احمد بن حنبل لم ينقل لاحد من الصحابة ما نقل لعلي .

وقال غيره : كان سبب ذلك بغض بني امية له . فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته .

وكلما ارادوا اخماده وهددوا من حدث بما فيه لا يزداد الا انتشارا ...

ولم يزل بعد النبي متصديا لنصرة العلم والفتيا ...

ومن خصائص علي قول الرسول يوم خيبر :

لادفعن الراية غدا الى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ... فدفعها لعلي .

فقال عمر : ما احببت الامارة الا ذلك اليوم ...

وبعثه يقرأ براءة على قريش وقال : لا يذهب الا رجل مني وانا منه ..

وقال : علي وليي في الدنيا والاخرة . واخذ رداء فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين ، وقال :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ... الاية » (1) .

ولبس ثوبه ونام في مكانه ، وكان المشركون قصدوا قتل النبي ... وقال :

انت ولي كل مؤمن بعدي . وسد الابواب الا باب علي (2) فيدخل المسجد جنبا ، وهو طريقه ليس له طريق غيره .

وقال :

من كنت مولاه فعلي مولاه .. ولما نزلت هذه الاية : « قل تعالوا ندع ابناءنا

---

(1) الاحزاب : 33 .

(2) حديث سد الابواب الا باب علي . ذكره السمهودي في وفاء الوفاء . « الناشر »

وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ... الاية » (1) دعا رسول الله عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فقال :

اللهم هؤلاء اهلي ..

واخرج الترمذي باسناد قوي عن عمران بن حصين في قصة قال فيها رسول الله : ما تريدون من علي ؟ ان عليا مني وانا من علي ، وهو ولي كل مؤمن بعدي » .

فما الذي حال اذن دونه ودون ارتقاء منبر النبي بعد وفاته مباشرة ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تستلزم ان يتطرق الباحث الى ذكر ظروف وفاة الرسول ؛ وانشغال الامام بتغسيله وتجهيزه ودفنه والصلاة عليه من جهة ، وباجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة وموقف عمر بن الخطاب من ذلك كله من جهة اخرى ، والى قول ذكره عمر ، على ما يظن ، وتردد على ألسنة بعض القرشيين يتضمن كرههم ان تجتمع النبوة والخلافة للهاشميين .

وخلاصة الامر ان الرسول توفي داره بالمدينة سنة 11 هـ وانشغل علي بأمر تغسيله وتكفينه والصلاة عليه . وكان الجو السياسي خارج دار النبي آنذاك نشطا مملوءاً بالمفاجآة والاحداث الجسام ، وفي مقدمتها مسألة خليفة الرسول .

اجتمع عمر بأبي عبيدة بمسجد المدينة وتشاورا في امر الخلافة ، واجتمع سعد ابن عبادة بسقيفة بني ساعدة يشاور الاوس والخزرج في امر الخلافة ايضا . واجتمعت في اماكن شتى زمر اخرى تتحدث في هذا الامر الخطير . على حين ان الامام عليا قد لازم في دار النبي ، وكان منهمكا باعداد الجثمان لوضعه في مثواه الاخير يساعده نفر من اهل البيت المفجوعين ، ومنهم ابو بكر (2) .

ومما يلفت النظر ان ابا بكر قد قدم من السنح (3) بعد ان بلغه خبر وفاة الرسول ،

---

(1) آل عمران : 61 .

(2) ابو بكر لم يكن من المفجوعين بوفاة النبي (ص) ليساعد الامام علي في اعداد جثمان الرسول في مثواه الاخير وانما دخل دار الرسول (ص)

ليتطلع الاخبار ويدبر امر الخلافة راجع كتابنا مع رجال الفكر في القاهرة .

(3) السنح ـ بالضم ، ثم السكون ، وآخره حاء مهملة احدى محال المدينة . كان بها منزل ابي بكر ، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج ، بقوا الى المدينة . 1 هـ « مراصد الاطلاع » لابن عبد الحق البغدادي 2 / 745 طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة . « الناشر »

فدخل دار النبي في حين ان عمر بن الخطاب قد بقي خارج الدار .

وفي زحمة تلك الظروف طرق باب دار النبي رجل اوفده ابن الخطاب يدعو ابا بكر لمقابلة عمر للتشاور معه في امر عظيم ، فخرج ابو بكر والتقى بصاحبه وسارا معا الى السقيفة ، حيث اجتمع الاوس والخزرج بسعد بن عبادة .

استمر الامام المفجوع منهمكا في امر الجثمان والالم يحز نفسه على وفاة الرسول .

وساور العباس عم النبي قلق شديد يتصل بارث النبي ، وبالمهة السرية التي قدم عمر متكتما من اجلها للتداول مع ابي بكر دون سواه ممن في الدار ، فهم بمبايعة الامام .

غير ان عليا رفض ذلك بشدة احتراما لجلال الموقف الرهيب ..

وتقدم ابو سفيان لمبايعة الامام بالخلافة ايضا فنهره ... ثلاث مرات ...

ويلوح الباحث ان اجتماع الانصار بابن عبادة في السقيفة لم يكن في ابتدائه راميا للاستئثار بتراث النبي بقدر ما كان راميا لتقرير منزلتهم في العهد الجديد .

ومهما يكن الامر فقد رافق اجتماع السقيفة شيء من التأزم والامتعاض ، وبخاصة عندما حضره ابو بكر وابو عبيدة بن الجراح ، غير انه انتهى بمبايعة ابي بكر على الشكل المعروف .

وخلاصة ذلك (1) ان الانصار من الاوس والخزرج ـ وفيهم سعد بن عبادة الذي كان مريضا حينذاك ـ قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول مباشرة للتداول في تقرير مصيرهم في العهد الجديد فقال سعد بن عبادة لبعض بنيه :

---

(1) هذه الخلاصة موجودة في امهات كتب التاريخ الاسلامي ، وهي هنا ملخصة عن الطبري : تاريخ الامم والملوك .

انه لا يستطيع ان يسمع المجتمعين صوته لمرضه ، وامره ان يتلقى منه قوله ويردده على مسامع الناس ، فكان سعد يتكلم ويستمع اليه ابنه ، ويرفع صوته بعد ذلك .

قال سعد : يخاطب الحاضرين : « ان لكم سابقة الى الدين ، وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب ... ان رسول الله لبث في قومه بضع عشرة يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الاوثان . فما آمن من قومه الا قليل ، حتى اراد بكم خير الفضيلة وساق اليكم الكرامة وخصكم بدينه ، فكنتم اشد الناس على من تخلف عنه ، واثقلهم على عدوه من غيركم . ثم توفاه الله وهو عنكم راض . . فشدوا ايديكم بهذا الامر فانكم احق الناس واولاهم به » .

واتى الخبر عمر فأتى باب منزل النبي واستدعى ابا بكر ـ كما ذكرنا ـ وخرجا الى السقيفة ، وخطب ابو بكر في المجتمعين فقال :

« انا معاشر المسلمين المهاجرين اول الناس اسلاما . ونحن عشيرة رسول الله .. وانتم انصار الله .. واخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين ، وفيما كنا فيه من خير فأنتم احب الناس الينا واكرمهم علينا .. وانتم المؤثرون على انفسهم حين الخصاصة ، واحق الناس ان لايكون انتقاض هذا واختلاطه على ايديكم ، وانا ادعوكم الى ابي عبيدة : او عمر ، فكلاهما قد رضيت لهذا وكلاهما اراه له اهلا ، فقال عمر وابو عبيدة : ماينبغي لاحد من الناس ان يكون فوقك .. فأنت احق الناس بهذا الامر .. فقام الحباب بن المنذر من الجموع فقال :

« يا معاشر الانصار املكوا عليكم ايديكم .. والله ما عبد الله علانية الا عندكم ، فأنتم اهل الايواء والنصرة . واليكم كانت الهجرة .. فان ابي هؤلاء فمنا امير ومنهم امير » .

فقال عمر : هيهات ..

فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اجتمعت عليه الانصار من تأمير سعد ابن عبادة ، وكان حاسدا له : وكان من سادات الخزرج قام فقال :

« ايها الانصار انا وان كنا ذوي سابقة فانا لم يرد بجهادنا ، واسلامنا الا رضا الله وطاعة نبينا .. ان محمدا رجل من قريش وقومه احق بميراث امره .. فاتقوا الله ولاتنازعوهم » .

فقام ابو بكر وقال : « هذا عمر وابو عبيدة ، بايعوا ايهما شئتم ، فقالا : « والله لا نتولى هذا عليك .. ابسط يدك نبايعك » .

فلما بسط يده وذهبا يبايعانه .. سبقهما اليه بشير بن سعد فبايعه .. فناداه الحباب ابن المنذر :

« يابشير عقق عقاق ، والله ما اضطرك الى هذا الامر الا الحسد لابن عمك » .

ولما رأت الاوس ان رئيسا من رؤساء الخزرج قد بايع قام اسيد بن حضير وهو رئيس الاوس فبايع حسدا لسعد ايضا ومنافسة له ان يلي الامة فبايعت الاوس كلها لما بايع اسيد .

وحمل سعد بن عبادة وهو مريض فأدخل الى منزله فامتنع عن البيعة .

ثم خرج الى الشام فاغتيل في اواخر خلافة ابي بكر ، وقد اتهم خالد بن الوليد بتدبير مؤامرة الاغتيال .

وبعد الانتهاء من ذلك قصد البراء بن عازب دار النبي وفيها جثمان الرسول وحوله علي واهل بيته فخاطبهم قائلا :

« لقد شهدت ابا بكر بعد السقيفة بعيني : الى يمينه عمر ، والى يساره ابن الجراح لا يمر بهم احد ولايمرون بأحد الا قدموا يده ـ شاء ام ابى ـ فمسحوها على يد ابي بكر » (1) .

تلك قصة السقيفة ، وهي قصة لاتخلو من امور واحداث تسترعي انتباه الباحثين

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود (الامام علي بن ابي طالب) 1 / 149 .

فمن يتصفح اجتماع السقيفة بدقة وامعان ويتأمل النتيجة التي ادى اليها ذلك الاجتماع الذي اسفر عن ارتقاء ابي بكر

منبر النبي لا يسعه ان يغفل الدور الحاسم الذي لعبه عمر بن الخطاب في هذا الموضوع الخطير .

ولاندري لماذا احجم ابن الخطاب عن دخول دار النبي والمساهمة في تهيئة الجثمان ووضعه في مثواه الاخير .

ولماذا احجم ثانية عن دخول الدار « حينما رأى اجتماع الاوس والخزرج في السقيفة ، للاتصال مباشرة بأبي بكر ؟ .

لماذا فضل عمر ان يمكث بباب دار النبي ويرسل شخصا غيره يدعو ابا بكر ليقابله خارج الدار ؟ .

ولماذا اقتصرت المشاورة على ابي بكر دون سواه من اهل البيت ومن اصحاب الرسول ؟ .

هل كان وجود ابي بكر داخل دار النبي وبقاء عمر خارجها طليقا يتصل ويفاوض ، من الامور التي وقعت مصادفة ؟ ام كان موضوعا وفق خطة معينة اتفق عليها الرجلان ؟

هل بقي ابو بكر في دار النبي رقيبا على من فيها لضمان عدم مفارقتها اياها ولمعرفة من يتصل بهم من الاشخاص الموجودين خارجها لتحديد هذا الاتصال في حالة حدوثه ، او لمنع حدوثه بمجرد وجوده هناك ؟

هل هناك علاقة بين هذه الحادثة ، وبين جيش اسامة وقضية الدواة والقرطاس ؟

ما هي الامور التي تم الاتفاق عليها بين عمر ، وابن الجراح ، عندما كانا يتناجيان في مسجد المدينة قبل ان يدعي اليهما ابو بكر ؟

لماذا احتج ابو بكر على الانصار بأفضلية المهاجرين ؟

هل كان ابو بكر يعني المهاجرين اطلاقا ، ام الذين حضروا السقيفة ـ هو وعمر وابو عبيدة ـ لكسب معركة الرئاسة ؟

واذا كان المهاجرين اولى بميراث النبي ـ من غيرهم ـ لسابقتهم في الاسلام

ولكونهم عشيرة النبي على حد قول ابي بكر ، افلا يصبح الهاشميون اولى من قريش ؟ وعلي اولى من الجميع ؟ ـ لان مقياس الفضل ـ الذي وضعه ابو بكر في كلمته التي ذكرناها ، كان ينحصر في السابقة الى الاسلام وفي القرابة من النبي .

لماذا رشح ابو بكر صاحبيه للخلافة دون سائر المهاجرين ؟ ماحقه في ذلك الترشيح ؟

ما اثر رضائه عن عمر ، وابي عبيدة من الناحية الشرعية ؟

الم يكن باستطاعته ان يدعو الانصار الى مبايعة من يرتضونه من المهاجرين اذا كان لابد من حصر الخلافة في المهاجرين ؟

لماذا اقتصر ترشيحه على عمر ، وابي عبيدة ؟

ولماذا رفض عمر وابو عبيدة هذا الترشيح ؟ ورشحا ابا بكر ؟

هل حدث ذلك صدفة ام انه كان جاريا وفق اتفاق سابق ؟

هل لتلك الاحداث علاقة بجيش اسامة ؟ وبمناجاة عمر وابي عبيدة في مسجد المدينة ؟ وباجتماعهما بأبي بكر اثناء المسير الى السقيفة ؟

اين كان المهاجرون الاخرون اثناء اجتماع السقيفة .

هل حصل التنابز بين الانصار ـ الاوس والخزرج ـ عفوا ؟ ام كانت هناك اياد خفية اثارته في تلك اللحظة الحاسمة من

التاريخ ؟

هل كان باستطاعة ابي بكر او عمر عن يقترحا على الانصار تأجيل البت في امر الخلافة الى ما بعد الانتهاء من دفن جثمان الرسول ؟

هل لذلك صلة بحديث الدواة والقرطاس . وبجيش اسامة .

تلك اسئلة تسترعي انتباه الباحثين .

وعندي ان الاجابة عليها ذات صلة وثقي بشخصية عمر بن الخطاب ، « ان الذي يؤخذ على ابن الخطاب حقا انه دعا ابا بكر من دار النبي ولم يدع معه احدا من آل الرسول .. وأنه وضع أبا بكر في كفة الترجيح دون مشورة رجل واحد غير أبي عبيد ابن الجراح كأنه وكل بقلوب المسلمين يكشفها ، وبألسنتهم يجري عليها الكلام رغم

تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه بالاسلام ..

ولقد كانت في الرجل دفعة لامراء ، عرفت فيه ابان اسلامه وشركه .. استبدت به جاهليته ذات ليلة ... فأقسم ليمشين الى محمد فيقتله .. تلك كانت دفعة عمر عرفت فيه كبعض خلقه ، راضها الاسلام .. ولكنه لم يأت عليها .. حتى في حضرة الرسول كانت تملكه ..

وكذلك كان يوم الحديبية .. فان عمر لم يتحر مشورة رجل واحد من المسلمين قبل ان يبعث رسوله الى دار النبي يدعوا صاحبه اليه .. لم يتحر مشورة مسلم واحد في ترشيح الرجل الذي ستصير اليه قيادة الاسلام » (1) .

* * *

لقد مر بنا وصف مجمل للظروف التي احاطت بوفاة الرسول وبيعة ابي بكر .

وهناك امر آخر يتعلق اشد التعلق بموضوع تحويل الخلافة من علي اشار اليه الجاحظ فيما يتصل بموقف زعماء قريش من علي بعد وفاة الرسول لابد من ذكره في هذه المناسبة .

فالامام في حروبه مع النبي ضد قريش كان قد وترها كما يقول الجاحظ : « وسفك دماءها وكشف عن منابذها .. وليس الاسلام بمانع من بقاء الاحقاد في النفوس .. هب انك كنت من سنتين او ثلاث جاهلياً ..

وقد قتل واحد من المسلمين ابنك او اخاك ثم اسلمت ، اكان اسلامك يذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشنآنه ؟ ..

هذا اذا كان الاسلام صحيحا .. لا كاسلام كثير من العرب ـ فبعضهم تقليدا ، وبعضهم للطمع والكسب ، وبعضهم خوفا من السيف ، وبعضهم عن طريق الحمية والانتصار لعداوة قوم آخرين من اضداد الاسلام واعدائه .

واعلم ان كل دم اراقه رسول الله بسيف علي وبسيف غيره فان العرب بعد

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 184 .

وفاته عصبت تلك الدماء بعلي وحده لانه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعتهم وعادتهم ان يعصب به تلك الدماء الا علي وحده » (1) .

يتضح مما ذكرنا ان الذي حال بين علي والخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ، اذا استثنينا النص على وصيته الذي يقول به فريق من المسلمين ، ليس هو شيئا متعلقا بأهليته لتحمل مسئولية هذا المنصب الخطير ولكنه كان ، كما رأينا ، نتاج ظروف اجتماعية خاصة نتجت عن انشغال الامام بجثمان الرسول وعن تنازع بعض كبار المهاجرين والانصار للاستئثار بتراث الراحل العظيم .

ولو انصف الناس حق الانصاف لارجأوا البيعة حتى يتم لهم مواراة جثمان الرسول .. كان ذلك ادنى الى الصواب ـ ان لم يكن هو الصواب ـ ان يترك القوم من المهاجرين والانصار لايتنازعون سلطان محمد بينهم ، ومحمد ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عيونهم مثواه »(2) . ومهما يكن من الامر فقد نحى الامام علي عن الخلافة ، ولكنه مع ذلك ، تعاون مع ابي بكر بقلبه ولسانه ويده في جميع الامور التي تتصل بجوهر الاسلام والمحافظة عليه ، استمع اليه يقول :

« اما بعد ، فان الله بعث محمداً نذيراً للعالمين .. فلما مضى تنازع المسلمون الامر بعده ، فوالله ماكان يلقى في روعي ولايخطر ببالي ان العرب تزعج هذا الامر من بعده عن اهل بيته ، ولا انهم منحوه عني من بعده ، فما راعني الا انثيال الناس على فلان (3) . يبايعونه . فأمسكت بيدي حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام ...

فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان ارى فيه ثلما او هدما تكون المصيبة به عليّ اعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع ايام قلائل » (4) .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 283 طبعة اولى .

(2) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 184 .

(3) كناية عن ابي بكر بن ابي قحافة .

(4) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 164 : 165 الطبعة الاولى بمصر .

ولم يختلف الامام مع ابي بكر او مع الذين جاءوا من بعده الا في الامور التي ساقه اجتهاده الشخصي اليها حرصا على الاسلام كذلك .

ويتجلى كبر نفس الامام في هذا الباب اذا تذكرنا بعض المواقف الغليظة التي وقفها منه ابو بكر في صدر خلافته ، ربما بتأثير من عمر ، وبخاصة في قضية ميراث فدك :

« فقد سبقت الشائعات خطوات ابن الخطاب وهو يسير الى دار فاطمة ... لطلب البيعة لابي بكر . وهل على ألسنة الناس عقال يمنعها ان تروى قصة حطب امر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة وفيها علي وصحبه !! (1) .

وخلاصة قصة فدك : قرية حجازية قريبة من المدينة ، سكنها اليهود منذ زمن بعيد وعمروها وزرعوها .

وفي السنة السابعة للهجرة اعلن سكانها خضوعهم للرسول ـ دون حرب ـ فأصبحت فدك خالصة للنبي من دون

المسلمين وفق منطوق الاية الكريمة : « وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » (2) .

وقد وهب الرسول فدك في حياته لابنته فاطمة ـ بعد ان غرس فيها بيده الكريمة احدى عشرة نخلة . فكانت السيدة فاطمة هي التي تتصرف بفدك منذ ان وهبها لها ابوها حتى وفاته حيث انتزعها منها ابو بكر بعد توليته الخلافة مباشرة .

وقد اشار الى ذلك الامام في احدى رسائله الى عثمان بن حنيف حين قال :

« بلى كانت في ايدينا فدك من كل ما اظلته السماء فشحت بها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين ... » (3) .

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن ابي طالب 1 / 216 .

(2) الحشر : 6 .

(3) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 4 / 78 الطبعة الاولى بمصر .

فالسيدة فاطمة اذن تستحق ميراث فدك من ناحيتين . هما الميراث والنحلة .

وكان علي الخليفة ـ وقد ارتأي انتزاعها منها ـ ان يبقيها تحت تصرفها مجاملة للرسول ولها ، ويقترح ـ في حالة اختلافه معها ـ انفاق بعض غلتها في وجوه الخير التي يتفق عليها الطرفان .

هذا اذا سلمنا جدلا بأنها لاترث ابيها ، وان النبي لم يهبها اياها في حياته .

كما كان على الخليفة كذلك ، من الناحية القانونية العرفية ، وقد قرر ان ينتزعها من السيدة ، ان يستبقيها في يدها الى ان يثبت له عدم احقيتها بها .

ومن الطريف ان نذكر قبل التصدي للبحث في طبيعة النزاع بين الزهراء وابي بكر في قضية فدك ، ان فدك بقيت بيد الخلفاء الراشدين .

فلما استولى معاوية على الملك قسمها مثالثة بين مروان بن الحكم ، وعمرو ابن عثمان بن عفان ، ويزيد ابنه ـ وهو امر على جانب كبير من الغرابة ـ غير انها قد اصيحت خالصة لمروان في خلافته فوهبها لابنه عبد العزيز الذي وهبها بدوره لابنه عمر الذي ردها عند توليته الخلافة ، لاولاد فاطمة . وكان رده اياها ، على ما يقول المؤرخون :

اول ظلامة ردها ، فلما ولى يزيد قبضها منهم فصارت في ايدي بني مروان ، وبقيت كذلك الى سقوط دولتهم .

فما جاء العباسيون ردها السفاح الى اهلها . ثم قبضها المنصور .

وردها ابنه المهدي ، وقبضها الهادي والرشيد .

وردها المأمون بعد ان ناظره في امرها شيخ طاعن في السن . ثم قبضها المعتصم

وبعد ذلك ضاعت معالمها على المؤرخين .

ويلوح مما ذكرنا ان فدك كانت وسيلة بيد الخليفة ان شاء ردها لاهلها ، وان شاء قبضها عنهم وفق مزاجه الخاص وحالته النفسية من جهة ، وموقف الطالبيين في زمانه من الاحداث السياسية العامة في الدولة من جهة اخرى .

ولما كان ارجاع فدك الى ورثة السيدة فاطمة قد حصل في عهد المأمون بشكل يدعو الى التأمل ويشير بصراحة ، لا لبس فيها ولاغموض ، الى حق السيدة في فدك لذلك نرى هنا اثباته هنا بالشكل الذي ذكره البلاذري (1) :

« ولما كانت سنة عشرة ومئتين امر المأمون .. برد فدك الى ولد فاطمة وكتب بذلك الى قثم بن جعفر عامله على المدينة :

اما بعد ، فان المؤمنين بمكانة من دين الله وخلافة رسوله والقرابة به ، اولى من استن سنته ونفذ امره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة منحته وصدقته .

وقد كان رسول الله اعطى فاطمة بنت رسول الله فدك وتصدق بها عليها . وكان ذلك امراً ظاهرا معروفا لا اختلاف فيه ..

فرأى امير المؤمنين ان يردها الى ورثتها ويسلمها اليهم تقربا الى الله باقامة حقه وعدله والى رسول الله بتنفيذ امره وصدقته .

فأمر باثبات ذلك في دواوينه والكتابة به الى عماله :

فلئن كان ينادي في كل موسم بعد ان قبض الله رسوله أن يذكر كل من كانت له صدقة او عدة ذلك فيقبل قوله وينفذ عدته ، ان فاطمة لاولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها . وقد كتب امير المؤمنين الى المبارك الطبري مولى امير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة اليها وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك الى : محمد بن يحيى بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب لتولية امير المؤمنين اياهما القيام بها لاهلها .

فأعلم ذلك من رأى امير المؤمنين وما الهمه الله من طاعته ووفقه له من التقرب اليه والى رسوله . واعلمه من قبلك .

---

(1) فتوح البلدان ص 46 ، 47 .

وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبري واعنهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور غلاتها ان شاء الله والسلام » .

وقد كتب ذلك في يوم الاربعاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة 210 هـ وتصدي ابو بكر للرد على السيدة فاطمة (1) في موضوع فدك من ناحية الميراث الى حديث انفرد بذكره على مايبدو ، هو :

« نحن معاشر الانبياء لا نورث . ما تركناه صدقة » .

وقد انفرد ابو بكر كذلك بذكر حديث آخر عندما اختلف المسلمون في محل دفن النبي فقال : سمعت رسول الله يقول : « ما قبض نبي الا ودفن حيث قبض » في حين ان التاريخ ـ على ما يذكر الطبري ـ يخبرنا ان الكثيرين من انبياء بني اسرائيل قد دفنوا في غير الاماكن التي قبضوا فيها .

وقد استغربت السيدة من ذلك اشد الاستغراب ، وكانت هي دون شك اولى من غيرها بسماعه ، لانه يخصها اكثر مما

يخص ابي بكر .

كما ان عليا لم يسمعه كذلك بدليل ان فاطمة لم تخرج الى ابي بكر مطالبة بميراثها من فدك الا بعلم منه واذن منه كذلك .

ولاندري لماذا همس الرسول بهذا الحديث الى ابي بكر دون سائر المسلمين .

وقبل ان يصبح ابو بكر طرفا في النزاع على هذا الميراث الذي يتصل بفاطمة وبنيها اشد الاتصال ؟ .

ومما يضعف هذا الحديث ـ بنظر فاطمة ـ انه يتنافى هو وكثير من الآيات القرآنية الصريحة في هذا الباب .

---

(1) وقد امتعضت السيدة فاطمة من موقفه ، ولم تكلمه الى ان توفيت ـ بعد وفاة ابيها باثنتين وسبعين ليلة ـ وذكر البخاري في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها . « الناشر »

فقد جاء في ذكر الميراث بشكل مطلق ـ دون ان يستثنى الانبياء من ذلك قوله تعالى في سورة النساء : « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » (1) .

وجاء في ذكر الميراث الذي وقع بالفعل للانبياء الذين سبقوا محمدا قوله تعالى في سورة النمل : « وورث سليمان دواد وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين » (2) .

وخاطب زكريا ربه في سورة مريم « قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا ، واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرائتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا (3) » .

لقد اشارت السيدة فاطمة الى ذلك كله في مناقشتها لابي بكر بمحضر جماعة من الصحابة ، ثم ختمت محاورتها مع الخليفة قائلة :

« فدونكها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك ... فنعم الحكم الله ... والموعد القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ...

يابن ابي قحافة افي كتاب الله ان ترث اباك ولا ارث ابي ؟ لقد جئت شيئا فريا ، افعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء اظهركم ؟

الم تسمع قوله تعالى : « واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ؟

اخصكم الله بآية اخرج ابي منها ؟ ام تقولون : اهلي ملتين لا يتوارثان ؟ اولست انا وابي من اهلي ملة واحدة ؟ ام انتم اعلم بخصوص القرآن وعمومه من ابي وابن عمي ؟ » .

ولما رأت السيدة فاطمة ان الخليفة مصر على رأيه تركت الامر واعرضت عنه . ويلوح للباحث ان السيدة فاطمة كانت عارفة منذ البداية ان الخليفة سوف

---

(1) النساء 11 .

(2) النمل 16 .

(3) مريم 5 ، 6 .

لا يعيد لها فدك ، وانها ذهبت اليه لالقاء الحجة عليه ، ولعل ذلك راجع الى انها لم تعرف من حيث الاساس بشرعية خلافته ، فالشخص الذي له القدرة والجرأة على سلب الخلافة من صاحبها الشرعي بنظرها لهو اقدر على سلب فدك وامثالها ! ؟

واذا امعن الباحث في الحديث الذي ذكره ابو بكر في ضوء سيرة الرسول بصورة عامة امكنه ان يقول :

ان الرسول لم يستثن نفسه من الخضوع للقواعد العامة التي جاء بها الاسلام .

فما عرف عنه انه قال : « نحن معاشر الانبياء لا نصلى او لا نصوم .. الخ » فكيف يعزل عن ميراث فدك وحده !

فهل لقضية فدك جانب سياسي ؟

هل قصد بذلك اخضاع السيدة فاطمة وزوجها لاوامر الخليفة لارغامها على الاعتراف بخلافته التي قابلاها بالصدود والامتعاض ؟

وهل لهذا الموضوع جانب اقتصادي ؟ هل قصد بذلك حرمان علي من التمتع بواردات فدك وهي مورده الوحيد ، لكيلا يصبح مكتفيا من الناحية الاقتصادية وليصرفه ذلك عن المطالبة بالخلافة ؟

هل لموضوع فدك جانب مالي يتصل بوضع الدولة الاسلامية آنذاك وحاجتها الى المال لمواجهة الذين اتهموا بالارتداد عن دفع الزكاة ؟

هل لقضية فدك جانب معنوي يتعلق بمحاولة تضعيف موقف آل النبي عند عامة المسلمين ؟ فيقال : ان النبي قد حرمهم كل شيء حتى ميراثه من فدك ؟ فتضعف حجتهم بالمطالبة بالخلافة ؟ هل لموضوع فدك اكثر من عامل واحد ؟ ثم لماذا وضع الرسول ـ ان صح الحديث الذي استشهد به الخليفة ـ صيغته بهذا الشكل من الاطلاق بحيث جعله يشمل معاشر الانبياء كافة ؟ ما الهدف الذي كان يرمي اليه الرسول من هذا الحديث !

هل كان يخشى ان تتصرف السيدة فاطمة بعوائد فدك في غير اوجهها السليمة ! واذا كان الامر كذلك فلماذا وضعها تحت تصرفها في حياته !!

ويجمل بنا قبل ان نتصدى لبحث فدك من ناحية النحلة ان ننبه القارىء الى اننا عثرنا على نقاش رائع من حيث الفكرة والاسلوب حصل بين قاضي القضاة والشريف المرتضى ذكره ابن ابي الحديد (1) الاول : ينفي ان يورث الانبياء ، والثاني : يثبته .

يدلل الاول ـ على رأيه بأن ما ورد في القرآن لا يتضمن الا وراثة العلم والفضل .

ويبرهن الثاني ـ على ان الارث يتضمن المال والعقار او لا ، ومن ثم العلم والفضل من باب التجوز ؛ وان كلمة ميراث في اللغة ، وما يتصل بها من المشتقات تعني بميراث الامور المعنوية من باب التجوز والاتساع ، وان الدلالة اذا دلت

في بعض الالفاظ على معنى المجاز فلا يجب ان يقتصر عليه ، بل يجب ان نحمل معناها على الحقيقة التي هي الاصل اذا لم يمنع من ذلك مانع . واذا فرضنا جدلا ان الميراث يقتصر على العلم والفضل ، الا يكون آل النبي ، بحكم ذلك الميراث ، اولى من غيرهم بالخلافة !

ذلك ما يتصل بموضوع فدك من ناحية الميراث .

اما ما يتصل به من ناحية النحلة فقد ذكرت السيدة فاطمة لابي بكر .

ان رسول الله قد وهبها فدك . فطلب الخليفة منها البينة على ذلك ، فقدمت له عليا ، وام ايمن ـ مربية الرسول ـ فلم يلتفت الى ذلك وبدا كالمتشكك في شهادة سيدة ، قمين بأبي بكر ان يسمو بها عن التشكك (2) .

فليس من المتوقع ان تكذب السيدة فاطمة على ابيها بعد موته بعشرة ايام فقط ، وفي مسألة تافهة كفدك ، او ان تكذب ام ايمن العجوز الجليلة التي رافقت الرسول من المهد الى اللحد ـ ام ايمن التي خرجت مهاجرة الى رسول الله من مكة الى المدينة ، وهي ماشية وليس معها زاد ـ ام ايمن زوج زيد بن حارثة مولى النبي وام اسامة بن زيد !! او ان يكذب ابن ابي طالب !!

---

(1) شرح نهج البلاغة 4 / 78 - 103 .

(2) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 216 .

ولاندري كيف فات ابا بكر ان يتذكر ان الله قد انزل قرآنا في علي وفاطمة واذهب عنهما الرجس (1) .

وقد كان المتوقع ان يكتفي الخليفة برواية فاطمة وحدها كما اكتفى ابوها قبل ذلك حين نازعه اعرابي في ناقة ادعى كل منهما انها ناقته .

فشهد خزيمة بن ثابت للرسول فأجاز شهادته وجعلها شهادتين فسمى ذا الشهادتين ، ولكن موضوع السيدة فاطمة ـ مع هذا لا يحتاج الى شهود ـ ذلك لانها روت رواية عن ابيها ، كما روى ابو بكر رواية اخرى .

وان السيدة فاطمة لم تطلب منه البينة على ما ادعاه على الرغم من شكها في صحته ـ اما الشهود فموقعهم في الدعوى .

استمع الى قوله تعالى في سورة البقرة :« يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ... واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » (2) .

والحجة التي نستند اليها في اهمية شهادة فاطمة ان موقفها عند الرسول ـ من حيث صدقها ـ لا يقل ، على اسوأ الفروض ، عن موقع خزيمة بن ثابت .

ويصدق الشيء نفسه على ام ايمن ، وابن ابي طالب الذي لم يعرف عنه قط الا اتباع الحق وقول الصدق .

فموقف ابي بكر غريب في بابه : واغرب منه انه ترك سيف رسول الله ، ونعله ، وعمامته ، في يد علي على سبيل النحلة بغير بينة ظهرت ولا شهادة قامت .

كما انه لم ينتزع من علي الخاتم والسيف اللذين وهبهما له النبي اثناء مرضه .

ولم يطالب كذلك بثياب الرسول التي مات فيها فأخذتها فاطمة بعد موته . ولا بحجر رسول الله التي بقيت بيد نسائه .

(1) انظر : الاحزاب 33 .

(2) البقرة 282 .

ولم يطلب ابوبكر من جابر على رواية البخاري (1) البينة على دعواه حين زعم ان رسول الله وعده باعطائه مقدارا معينا من المال ، بل سلمه اياه عندما ورده مال من قبل العلاء بن الحضرمي .

كما ان ابا بكر ايضا ام يطلب البينة ـ عندما قدم عليه مال من البحرين ـ من ابي بشير المازني حين ادعى ان النبي قال له اذا جاءنا شيء فائتنا ، وانما دفع له حفنتين او ثلاثا من ذلك المال .

واذا كان النبي لايورث ، وما تركه صدقة ، فكيف يجوز ان يواري جثمانه في الحجرة التي كانت تسكنها زوجته عائشة بنت الخليفة ؟

لان تلك الحجرة قد اصبحت صدقة بعد وفاة الرسول مباشرة بحكم ذلك الحديث » .

ثم كيف نوفق بين ذلك الحديث وبين الحديث الآخر الذي انفرد بذكره ابو بكر القائل بأن الانبياء يدفنون حيث يقبضون ؟

افي الحديث ناسخ ومنسوخ ؟

ثم كيف نفذ الخليفة محتويات « الحديثين » على تناقضهما ؟

وبقدر ما يتعلق الامر بالحديث الثاني يمكننا ان نقول : ان النبي يموت في احد موضعين : ما كان يملكه قبل وفاته ! وما كان يملكه غيره من الناس .

ولايجوز ان يدفن جثمانه في المحل الاول لانه اصبح صدقة على رواية ابي بكر عن النبي ، كما لا يجوز دفنه في المحل الثاني لان ملكيته عائدة لغيره .

كيف السبيل الى الخروج من هذا المأزق الحرج ؟

ثم كيف جاز لابي بكر نفسه ان يطلب بدفن جثمانه قرب النبي ؟ في ارض لاحق له بها من الناحية الشرعية ؟ .

واذا كان دفن جثمان النبي على الشكل الذي ذكرناه مستندا الى الحديث الذي ذكره ابو بكر ، فالى اي حديث يستند ابو بكر في طلب دفنه بجوار النبي ؟

هل قال النبي : يدفن الخليفة الاول قريبا مني ؟

(1) صحيح البخاري 3 / 180 .

كل ذلك غريب في بابه ، واغرب منه ان كثيرا من المفسرين قد تكلفوا فيما بعد تفسير آيات الميراث ، فزعموا للرد على من طعن بصحة الحديث بأن الوراثة المذكور في القرآن مقصورة على العلم والفضل ، دون سائر الامور .

ولسنا نعلم كيف يورث العلم والفضل ، وهو امر يخالف ما الفه الناس من قديم الزمان ، ويتعارض مه ابسط مبادىء علم النفس وعلم الاجتماع ؟

واغرب من ذلك كله ان الخليفة يحرم السيدة فاطمة ميراث فدك ليطبق الحديث الذي انفرد بذكره في الوقت الذي يخالف فيه حديثا آخر اجمع الرواة على صحته باعتراف ابي بكر نفسه :

« فاطمة بضعة مني ، من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » (1) .

ولاندري ، بالاضافة الى كل ماذكرنا . كيف فات ابا بكر ان يتذكر موقف الرسول من ابي العاص بن الربيع زوج زينب بنت خديجة زوج النبي حين اسر في بدر مع المشركين .

والى القارىء تلك القصة على مارواها ابن الاثير (2) .

« وكان في الاسارى ابو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس زوج زينب بنت خديجة (3) .

---

(1) اخرجه البخاري في صحيحه . « الناشر »

(2) الكامل في التاريخ 2 / 93 - 95 .

(3) وامه هالة بنت خويلد اخت خديجة زوج رسول الله ، فسألته ان يزوجه زينب ففعل قبل ان يوحى اليه ، فلما اوحى اليه آمنت به زينب وبقى ابو العاص مشركا ، ولم يستطع الرسول في بادىء الامر ان يفعل شيئا تجاه زينب المسلمة او زوجها المشرك ، فلما هاجر الى المدينة ووقعت بدر واسر ابو العاص واطلق سراحه كما ذكرنا اخبر النبي بأنه سوف يرسل اليه زينب الى المدينة ، فأرسل الرسول زيد بن حارثة مولاه ورجلا آخر من الانصار ليصحبا زينب من مكة . فلما قدم ابو العاص امرها باللحاق بالنبي ففعلت ذلك . ـ المؤلف ـ

فما بعثت قريش في فداء الاسارى بعثت زينب بفداء ابي العاص زوجها بقلادة لها كانت خديجة ادخلتها معها ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة ، وقال :

ان رأيتم ان تطلقوا اسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا ، فأطلقوا لها اسيرها وردوا القلادة ...

فلما كان قبل الفتح خرج ابو العاص تاجرا الى الشام بأمواله واموال رجال قريش .

فلما عاد لقيته سرية لرسول الله فأخذوا ما معه وهرب منهم ، فما كان الليل اتى الى المدينة فدخل على زينب .

فلما كان الصبح خرج رسول الله الى الصلاة فنادت زينب من صفة النساء :

« ايها الناس اني قد اجرت ابا العاص .. فقال رسول الله : ان رأيتم ان تردوا عليه الذي له فانا نحب ذلك ، واذا ابيتم فهو في الله الذي افاء عليكم وانتم احق به .

قالوا : يا رسول الله نرده عليه ، فردوا ماله كله حتى الشظاظ » (1) .

نقول : الم يكن باستطاعة ابي بكر ـ في حالة التسليم معه بأن السيدة فاطمة لا ترث ابيها ، وان النبي لم يهب فدكا لها ـ ان يتخذ موقفا كهذا الذي اشرنا اليه ؟ مع وجود الفارق الكبير بين الحالتين ، فقد وهب المسلمون حقهم لابي العاص المشرك ، وكانوا ـ دون شك ـ على استعداد تام لوهب حقوقهم ـ في حالة التسليم بصحة الاجراءات التي اتخذها الخليفة ـ الى ابنة الرسول . الم يكن تصرف الرسول مع ابي العاص ـ في الحالتين سنة ! فهل يعتبر ترك ابي بكر لها ـ في هذه الحالة ـ منسجما مع السنة !!

---

(1) شظاظ ، على وزن كتاب ، وهو خشبة عقفاء تجعل في عروتي الجولقين .

حديث السقيفة

ب ـ عمر بن الخطاب

« اما والله لقد تقمصها ابن (1) ابي قحافة ، وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى .. فسدلت دونها ثوباً .. حتى اذا مضى الاول لسبيله فأدلى بها الى ابن الخطاب بعده .. فصبرت على طول المدة وشدة المحنة .. فواعجبا بينما هو يستقيلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لشد ما تشطرا ضرعيها » .

وهكذا كان : انتقلت الخلافة التي تسلمها ابو بكر ، بجهود عمر كما ذكرنا في حديث السقيفة ، الى عمر نفسه بعد وفاة صاحبه ، وقبل ان يوصى ابو بكر بالخلافة من بعده لعمر ، استدعى قبل وفاته عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، لاستشارتهما في موضوع تخليفه عمر بن الخطاب ، فسألهما رأيهما في عمر ، فكان جواب الاول :

ان عمر « افضل من رأيك فيه » (2) ـ مع العلم ان عمر كان يحتل المركز الاول

---

(1) تقمصها ، جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرها للعلم بها ... فسدلت : ارخيت ... ومضى لسبيله : مات ... وقوله فأدلى بها من قوله تعالى « **ولاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام** البقرة 188 » اي تدفعوها اليهم رشوة . واصلها من ادلت الدلو في البئر ارسلتها ... كان علي يرى العدول عنه الى غيره اخراج لها الى غير جهة الاستحقاق ... من باب الاستعارة . ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 1 / 50 - 67 ، الطبعة الاولى .

(2) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 239 .

عند ابي بكر ، فكيف به اذا كان احسن من رأى ابي بكر فيه !!؟

وكان جواب الثاني « ان سريرته خير من علانيته ، وان ليس فينا مثله » (1) .

ولاندري فيما اذا كان الرجلان يؤمنان حقا بما قالاه ، ام انهما عرفا اتجاه الخليفة فجاملاه !! ؟

وعلى اي حال فقد امر ابو بكر عثمان ان يكتب عهده لعمر كما هو معروف .

ويذكر المؤرخون : ان ابا بكر عندما كان يملي عهده لابن الخطاب على عثمان اغمى عليه قبل ان يذكر اسم ابن الخطاب .

وان عثمان وضعه من نفسه مستدلا على ذلك من الاتجاه العام لمجرى الامور .

فلما افاق ابو بكر : قرأ العهد عثمان عليه ، فأقره واستحسنه ـ ولسنا نعلم كيف اجاز عثمان لنفسه ذلك ؟ اينسجم ذلك العمل مع اوليات مبدأ الامانة ؟

ولو فرضنا ان ابا بكر قد توفى اثناء تلك الاغماءة ، فهل يجوز اعتبار العهد سليما من الناحية الشرعية ؟

ولا ندري لماذا استشار ابو بكر عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان دون سائر الصحابة ، ولماذا فكر ابو بكر في امر الخلافة بعده ، من الناحية المبدئية العامة ـ بغض النظر عن تولية عمر بالذات ـ في حين ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من وجهة نظر ابي بكر ، لم يفكر في هذا الامر ؟

واذا كانت مصلحة المسلمين تستلزم ذلك ، فهل يكون ابو بكر احرص من النبي صلى الله عليه وسلم عليها ، واذا كان ترك الرسول امر الخلافة من بعده للمسلمين انفسهم ـ حسب وجهة نظر بعض المسلمين ـ سنة ، فهل ايصاء ابي بكر لعمر يتفق مع السنة ؟

ثم لماذا سأل ابو بكر : عبد الرحمن وعثمان عن رأيهما في عمر بالذات دون سواه من المسلمين ! والشيء الذي لا يرقى اليه الشك هو :

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن ابي طالب 1 / 240 .

« ان ابا بكر رأى لعمر عليه حقا حين استخلفه .. ولكن الاسلوب الذي انتهجه عند الاختيار كان اسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والاخطاء !

فان الشيخ لم يتناول الامر بالصراحة الواجبة ، بل بدأ كأنه اضمر التثبيت ، وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول ، ووقع بهذا في الخطأ الذي وقع فيه عمر من قبل عند وفاة الرسول ..

اسقط ابو بكر من حسابه : عليا ، الذي كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه » (1) .

ومما يلفت النظر في الامر حقاً ، كما سلف ان ذكرنا ، ان ابا بكر الذي كان يذهب مذهب القائلين بأن النبي ترك امر الخلافة من بعده للمسلمين قد اوصى بالخلافة من بعده لعمر !؟ .

* * *

« حتى اذا مضى الثاني لسبيله جعلها في جماعة زعم اني احدهم .. فيا لله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر !! » (2) .

قال عمر بن ميمون الاسدي ، على ما يذكر ابن الاثير (3) :

« لما طعن عمر بن الخطاب (4) قيل له : يا امير المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال :

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود 1 / 238 .

(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 1 / 50 - 67 الطبعة الاولى .

(3) الكامل في التاريخ 3 / 34 .

(4) والى القارىء ما ذكره ابن خلدون في مسألة مصرع الخليفة الثاني « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر 2 / 362 » « كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه ابو لؤلؤه ، وكان يشدد عليه في الخراج ، فلقى

يوما عمر في السوق فشكا اليه وقال : اعدني على المغيرة ، فانه يثقل عليّ في الخراج درهمين في كل يوم ، قال : وما صناعتك ؟ قال : نجار ، حداد ، نقاش ، فقال : ليس ذلك بالكثير على هذه الصنائع .. وقد بلغني انك تقول : اصنع رحى =

من استخلف ؟ لو كان ابو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربي ـ ان سألني ـ سمعت نبيك يقول : انه امين هذه الامة .

ولو كان سالم مولى حذيفة حيا لاستخلفته وقلت لربي ـ ان سألني ـ سمعت نبيك يقول : « ان سالما شديد الحب لله » .

وعندي لو ان ابا عبيدة كان حيا لاستخلفه عمر ، لا لكونه امين هذه الامة ـ على حد تعبير ابن الخطاب ـ ولكن لانه كان ثالث : اصحاب السقيفة ، ولتأخر بذلك استخلاف عثمان بن عفان ، ولاصبح الخلفاء الراشدون خمسة في حالة وصول الخلافة لعلي ، وجريان الاحداث في عهد عثمان ـ الخليفة الرابع ـ على الشكل الذي جرت عليه في عهده ـ وهو : الخليفة الثالث .

ولاندري ما الذي حال بين عمر وبين دفع الخلافة الى ابي عبيدة بعد وفاة الرسول مادام قد سمع قول النبي الآنف الذكر !! وان يقترح على الانصار في السقيفة ان يحولوا الخلافة الى ابن الجراح ، او الى سالم !! او ان يقول لابي بكر آنذاك حين طلب من الانصار ان يبايعوا عمراً وابا عبيدة ـ اننا نبايع ابا عبيدة او سالما ، لان الرسول قال فيهما : كذا وكذا !!

ولماذا بايع ابن الخطاب ابا بكر بالخلافة دون ان يقول فيه الرسول ماقاله في ابي عبيدة او في سالم ؟؟ . ولماذا لم يقترح عمر على ابي بكر ان يسلم الخلافة من بعده الى ابي عبيدة بدلا من عمر نفسه ؟ (1) .

= تطحن بالريح ، فاصنع لي رحى ، قال : اصنع لك رحى يتحدث الناس بها ! ؟ وانصرف ، فقال عمر : توعدني العلج !! فلما اصبح الصباح خرج عمر الى الصلاة ... ودخل ابو لؤلؤة وبيده الخنجر ، فضرب عمر » .

(1) لان سالما قتل في اوئل خلافة ابي بكر اثناء حرب الذين اتهموا بالامتناع عن اداء الزكاة .

واذا كانت شروط الخلافة لاتخرج عن توافر حب الشخص لله او كونه امين هذه الامة بشهادة الرسول فعلي بن ابي طالب اولى من غيره ؛ فكيف غاب عن ذهن عمر قول رسول الله يوم خيبر على ما ذكره الامام مسلم في صحيحه (1).

« لاعطين هذه الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله » الى آخر الحديث وتسليمه الراية لعلي ؟

ومهما يكن من شيء فقد استدعى عمر بن الخطاب قبيل وفاته علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وسعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام وقال لهم : « اذا مت تشاوروا ثلاثة ايام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم ، وليحضر عبد الله بن عمر مشيرا .. وطلحة بن عبيد الله (2) شريككم في الامر . فان قدم الثلاثة فاحضروه امركم .

وقال لابي طلحة الانصاري : اختر خمسين رجلا من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال للمقداد بن الاسود : اذا وضعتموني في حفرتي (3) فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم .. فان

اجتمع خمسة وابى واحد فاشرخ رأسه بالسيف .

وان اتفق اربعة وابى اثنان فاضرب رؤوسهما .

وان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فان لم يرضوا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف (4) .

واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما مات عمر واخرجت جنازته صلى عليه صهيب ، فلما دفن جمع المقداد اصحاب

---

(1) صحيح مسلم 2 / 224 .

(2) وكان غائبا عن المدينة آنذاك .

(3) تذكر ان جثمان الرسول لم يوضع في حفرته وعقد اجتماع السقيفة المشهور .

(4) تذكر شهادة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان عند ابي بكر بشأن استخلافه عمر ، وما صنعه عثمان عند كتابته عهد ابي بكر لعمر .

الشورى ... وطلحة غائب ... فقال عبد الرحمن :

ايكم يخرج منها نفسه .. على ان يوليها افضلكم ؟ فلم يجبه احد ، فقال :

فأنا انخلع منها ، فقال عثمان : انا اول من رضى ، وقال القوم : قد رضينا ، وعلي ساكت ، فقال :

ما تقول يا ابا الحسن ؟ قال :

اعطني موثقا لتؤثرن الحق ، ولاتتبع الهوى ، ولاتخص ذا رحم ، ولاتألوا الامة نصحا » (1) فأعطاه الموثق المطلوب (2) .

وبعد نقاش طويل بين الحاضرين نظر ابن عوف الى علي بن ابي طالب وقال : « ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين ابي بكر وعمر ، فقال علي :

بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي :

فعدل عنه الى عثمان ، فعرض عليه ذلك ، فقال : نعم ، فعاد على علي . ، فأعاد قوله ... فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثا .

فلما رأى عليا غير راجع عما قاله ، وان عثمان ينعم بالاجابة صفق على يد عثمان وقال : السلام عليك يا امير المؤمنين .. ويقال :

ان عليا قال : والله ما فعلتها الا لانك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه » (3) .

---

(1) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » 3 / 35 ، 36 .

(2) وما اكثر اعطاء المواثيق في امثال هذه الامور الخطيرة لغرض الحصول على الغاية المرجوة . ومن ثم يبدأ التسويف والمماطلة والانحراف ، وما اكثر الذين يدفعهم ايمانهم الخالص الى وضع تلك المواثيق ظنا منهم انهم ما داموا لا يستطيعون ان يخرجوا علمها فان غيرهم لايستطيع ايضا ان يخرج عليها .

فهل فعل ذلك عبد الرحمن عفوا ام انه امر مبيت قبل الاجتماع ؟ !

اليس القصد من وضعه شرط اتباع سيرة الشيخين يتضمن سلما اخراج علي من الموضوع . على ان موضوع الشورى مع هذا يحتاج الى مناقشة وتدقيق .

وقبل ان نتصدى لمناقشته يجمل بنا ان نشير الى الامرين التاليين :

1 ـ ذكر الطبري (1) رواية تتعلق بتصريح لعمر بن الخطاب اثناء انشغاله في قضية الشورى فحواه : ان عمر لما طعن ورفض امر الاستخلاف ، وندم على وفاة ابي عبيدة وسالم ، كما ذكرنا .

قال لبعض عانديه من الصحابة وفيهم علي ـ قبل تعيين رهط الشورى ـ « اني كنت قد اجمعت قبل مقالتي لكم ان انظر فأولى رجلا امركم هو احراكم ان يحملكم على الحق ـ واشار الى علي .

ورهقتني غشية فرأيت رجلا دخل جنة ثم غرسها . فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه اليه ، ويصيره تحته . فعلمت ان الله غالب على امره ، ومتوف عمر ، فما اريد ان اتحملها حيا وميتا .

عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله : انهم من اهل الجنة :

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ، ولست مدخله .. وما اظن ان يلي الامر الا احد هذين الرجلين : علي وعثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين .

وان ولى علي ففيه دعابة واحرى به ان يحملهم على طريق الحق »

2 ـ وكتب مؤرخ آخر (2) ان عمر كان قد استدعى قبل ان يبت في امر الشورى كلا من الزبير وطلحة ـ قبل سفره من المدينة ـ وسعد وعبد الرحمن

---

(1) « تاريخ الامم والملوك » 5 / 34 ، 35 .

(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 170 طبعة مصر الاولى .

وعلي وعثمان ، وقال :

« ما انت يا زبير ! ... يوما انسان ويوما شيطان .

وما انت ياطلحة ! فقد مات رسول الله ساخطا عليك بالكلمة التي قلتها يوم انزلت آية الحجاب ـ وفي رواية اخرى :

« الست القائل : ان قبض محمد انكح ازواجه من بعده ، فما جعل الله محمداً احق ببنات اعمامنا منا ! فأنزل الله فيك قوله :

« وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً » (1) .

قال شيخنا ابوعثمان الجاحظ : لو قال لعمر قائل : انت قلت : ان رسول الله مات وهو راض عن الستة فكيف تقول لطلحة : انه مات ساخط عليك للكلمة التي قلتها ، لكان قد رماه بمشاقصة ..

ثم اقبل عمر على سعد فقال : اما انت فصاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس ، ومازهرة والخلافة ، وامور الناس ! ثم اقبل على عبد الرحمن فقال . ليس يصلح هذا الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما « زهرة » وهذه الامرة !

ثم اقبل على علي فقال : لله انت لولا دعابة فيك !

اما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح .

ثم اقبل على عثمان فقال : هيا اليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الامر فحملت بني امية وبني ابي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء » .

واذا امعنا النظر في قضية الشورى ، على الشكل الذي ذكرناه ، اتضح لنا ان عمر قد حددها تحديدا دقيقا وبين رأيه فيها فجعلها شورى مشروطة لا مطلقة .

واول ما يتبادر الى ذهن المرء في هذا الاشتراط هو رغبة عمر في حصول الاجماع بين رجال الشورى . وهو امر - دون شك - على جانب كبير من الوجاهة

---

(1) الاحزاب : 53 .

من الناحية المبدئية ، غير ان عمر قد قيد الشرط ايضا - اي انه جعل الشرط نفسه مشروطا ، ان جاز هذا التعبير - فأمر المشرف على شئون الشورى ان يشرخ رأس من يخالف الاكثرية ، ورؤوس المخالفين - في حالة انقسام المؤتمرين فيما بينهم الى نصفين - للرأي المخالف للنصف الذي فيه عبد الرحمن ابو عوف .

ولسنا نعرف السر الذي دفع عمر الى ايثار ابن عوف بذلك سوى علاقات شخصية بين الرجلين ذكر الطبري (1) طرفا منها !!

ولم يعر ابن الخطاب على مايبدو اية اهمية للأسس التي يستند اليها من يخالف رأي اكثرية المجتمعين ، او رأى النصف الذي ينحاز اليه ابن عوف .

وهل يجيز القرآن او سنة الرسول ضرب اعناق رجال من المسلمين لمجرد انهم يجتهدون برأي يخالف الرهط الذي فيه عبد الرحمن بن عوف .

فكيف وهؤلاء المسلمين من خيرة اصحاب النبي بشهادة عمر نفسه ؟ فقد استباح ابن الخطاب دماءهم بعد ثلاثة ايام فقط من بدء التداول في امر الشورى الذي يتوقف عليه مصير المسلمين .

ثم الم يكن تفكير عمر في امر خلافة المسلمين من بعده ، كما فعل ابو بكر ، يخالف سنة الرسول الذي مات - من وجهة نظر عمر - ولم يوص بالخلافة لاحد من بعده ؟

ثم الا يجوز لنا ان نسأل عن حق هؤلاء الرهط في تقرير مصير الخلافة دون سائر المسلمين ؟ واذا كان مجرد رضا النبي عنهم ، اذا فرضنا صحة ذلك ، مع العلم ان بعض المؤرخين - كما سلف ان ذكرنا - قد اشار الى غضب الرسول

على طلحة كافيا لترشيحهم للشورى ، فلماذا لم يدخل عمر آخرين ممن كان الرسول راضيا عنهم من المهاجرين والانصار ؟

---

(1) « تاريخ الامم والملوك 5 / 20 ، 51 و 4 / 162 ـ وكان ابن عوف من اكابر المترفين في الجاهلية والاسلام « وكان مترفا في طعامه ولباسه وسكنه ، وقد سمح له الرسول ، على ما يذكره الرواة : ان يلبس الحرير لحكة كانت في جلده .

واذا كان سعيد بن عمرو بن نفيل حائزا على شروط الشورى ، باعتراف عمر نفسه ـ كما ذكرنا ـ فماذا استثناه عمر وحرمه من المساهمة في هذا الامر العظيم ؟ وحرم رجال الشورى من رأيه ؟

ومن الغريب ان يصف عمر عليا بالدعابة ، ولم نسمع احدا غير عمر وصفه بذلك فقد كان علي معروفا بالزكانة والبعد عن المزاح والدعابة .

هذا معلوم ضرورة لمن سمع اخباره .. وقد روى عن ابن عباس انه قال :

كان امير المؤمنين اذا اتى هبنا ان نبدأه بالكلام .

وهذا لا يكون الا من شدة التزمت والتوقر ، وما يخالف الدعابة والفكاهة (1)

ثم الا يوجد تفاوت كبير بين رجال الشورى من حيث موقعهم من الرسول واثرهم في الاسلام . فلماذا اعتبرهم عمر على درجة واحدة من الاثر في هذا الباب .

ثم اليست هناك روابط عائلية ومصلحية بين رجال الشورى .

الا تؤثر تلك الروابط على سلامة الاختيار .

الم يقل عمر للزبير : انك يوما شيطان ويوما انسان ... ولطلحة :

ما انزله الله فيه من قرآن . ولسعد ... « فمن ذا يستطيع ان يقول : ان عمر لم يحدد موقفه من الشورى غاية التحديد .

ولم يقطع على علي ـ بالتلميح او التصريح ـ الطرق الى ولاية الناس ...

لقد الب عمر على علي احقاد قريش . فمن لعلي برضى تيم وقد نافس شيخها ابا بكر

وهذا طلحة التميمي ! ، ومن له بمحو الاحقاد الاموية من بني هاشم .

وهذا عثمان ! وقد ضمت الشورى ايضا سعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ولكليهما نسب موصول ببني امية .

اتى الاول من ناحية امه حمنة بنت سفيان .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 170 طبعة مصر الاولى .

واتى الثاني من ناحية زوجه ام كلثوم بنت عقبة اخت عثمان (1) .

ولنعد ثانية الى نص عبارة ابن الخطاب لرجل الشورى .

اليست صيغتها توحى بترشيح عمر عثمان لولاية المسلمين .

وهل الدعابة المزعومة في علي ـ على فرض وجودها جدلا ـ عامل حاسم في ابعاد علي عن الخلافة على الرغم من انه يحملهم بشهادة عمر نفسه ، على الحق الواضح .

ثم اذا كان عمر ـ على مايروي الطبري ـ قد ارتأى ان يولى امور المسلمين رجلا هو احراهم ان يحملهم على الحق ـ واشار الى علي ـ فماذا اقلع عن ذلك لالشيء وجيه سوى طيف الم به على ما ذكر هو حسب رواية الطبري .

والخلاصة « ان قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها ـ برهة ـ ذهن المتدبر ، لان فيها ... خروجا على مبدأ الشورى .. وتحكم الفرد في الجماعة ... وفي نفر اختاره وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه ...

وفيها تعسف التسوية بين ستة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا سواء ... وفيها تكتل القوى العصبية » (2) .

ذلك ما يتصل بأمر الشورى بشكل عام .

اما ما يتصل بتفاصيل اجتماع رجالها بعد وفاة الخليفة ، فان اول شيء « مكر به عبد الرحمن انه ابتدأ فأخرج نفسه من الامر ليتمكن من صرفه الى من يريد ليقال : انه لولا ايثاره للحق ، وزهده في الولاية ، لما اخرج نفسه منها » (3)

ولاندري فيما اذا كان تصرف ابن عوف قد حصل عفوا ، ومن وحي الساعة ام انه امر متفق عليه قبل وفاة الخليفة !

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 275 ، 276 .

(2) المصدر نفسه 1 / 123 ، 124 .

(3) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 172 طبعة / مصر الاولى .

ثم ان عبد الرحمن باخراجه نفسه من الموضوع قد حصل على امتياز خاص جعل امر الخلافة منوطا به ، وقد حصل على ذلك الامتياز دون ان يخسر شيئا في الواقع ، ذلك لانه اخرج نفسه من امر ـ الخلافة ـ ما زال الى وقت خروجه منه غير مبتوت فيه .

فلماذا اذن وقف ابن عوف موقفه المعروف فخلع نفسه من الخلافة ـ وهو امر لا يملكه قبل عملية الشورى وفي حالة انتخابه للخلافة .

ثم الم تؤثر صلة نسبه بعثمان في موقفه من علي .

ولماذا اشترط عبد الرحمن ان يسير علي على ما سماه « سيرة الشيخين » بالاضافة الى القرآن وسنة الرسول .

هل سار الشيخان على القرآن وسنة النبي وسيرة الشيخين . ام على القرآن والسنة حسب اجتهاد كل منهما ـ كما اراد

على ان يسير .

ثم هل هناك شيء محدد اسمه « سيرة الشيخين » .

الم يختلف الشيخان اختلافات كثيرة فيما بينهما . وبقدر ما يتعلق الامر باختلاف سيرة ابي بكر في الخلافة عن سيرة عمر ـ في كثير من القضايا ـ يمكننا ان نذكر بعض الامثلة على سبيل التمثيل لا الحصر .

ويجمل بنا قبل ذلك ان نشير الى ان عمر نفسه كثيرا ما تختلف سيرته عن سيرة النبي في بعض التصرفات العامة ـ من ذلك مثلا طريقته في تقسيم العطاء بين المسلمين : اذ لابد ان حضرته آنذاك عوامل رجحت لديه رأيه .

ولكن مما لا ريب فيه ان عوامل اخرى اقوى من السالفة قد غابت عنه ، وكان اجدى به .. ان يعدل عما حزم عليه امره .. ولكنه رأى رأيا فالتزمه ... وان رسول الله صاحب خير الآراء كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينما نسمع

الصديق يأبى ان يفضل اهل السابقة الى الاسلام على غيرهم .. اذ بابن الخطاب من بعده يخالفه » (1) .

« ولعل آفة عمر كانت دفعته ـ تلك التي اوقفته دائما مواقف انكرها من نفسه كلما فاتت آونتها واتسع امامه مجال التفكير ...

وقد طالما افتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى .

وقد طالما دفعته الرغبة في الاصلاح الى سن الشرعة .. فاذا بها لا تلبث ان تتقوض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره » (2) .

وطالما عمل عملا بالاستناد الى قناعته الشخصية ثم عاد فأقلع عنه اذا تغيرت قناعته من ذلك ، مثلا : ـ

أ ـ اتاه رجل فقال : « يا امير المؤمنين ان فلانا ظلمني فأعدني عليه ، فرفع في السماء درته وضرب رأسه ، وقال : تدعون عمر وهو معرض لكم ، وحتى اذا شغل بأمر المسلمين اتيتموه : اعدني !! فانصرف الرجل يتذمر .

فقال عمر : عليّ بالرجل ، فجيء به . فألقى اليه المخفقة فقال : اقتص ، قال :

بل ادعه لله ولك ، قال : ليس كذلك ، بل تدعه اما لله وارادة ما عنده ، واما تدعه لي ، قال : ادعه لله ، قال . انصرف .

ثم جاء حتى دخل منزله .. فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس فقال :

يا ابن الخطاب ، كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك ... ثم حملك على رقاب الناس ، فجاء رجل ليستعديك على من ظلمه فضربته ، ماذا تقول لربك غدا » (3)

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود : « الامام علي بن ابي طالب » 2 / 9 ، 10 .

(2) المصدر نفسه 1 / 250 ، 251 .

(3) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 97 طبعة مصر الاولى .

ب ـ « استعمل عمر : النعمان بن عدي بن نفيلة على ميسان . فبلغه عنه الشعر الذي قال فيه :

ومـن مبلغ الحسناء ان خيلها * بـميسان يسقى من زجاج وحنتم

اذا شئت غنتنى دهـاقين قرية * وصناجـة تحد على كـل منسم

فان كنت ندماني فبالاكبر اسقنى * ولا تـسقنى بالاصغر الـمتثلم

لـعل امير المؤمنين يسـوؤه * تنـادمنا بالجوسـق المتهـدم

فكتب اليه :

اما بعد .. فقد بلغني قولك .. وايم الله انه يسوؤني ، فأقدم فقد عزلتك .

فلما قدم عليه قال : يا امير المؤمنين ما شربتها قط ، وانما هو شعر طفح على لساني ، واني لشاعر !

فقال عمر : اظن ذاك ، ولكن لاتعمل لي عملا ابداً » (1) .

ج ـ استعمل عمر رجلا من قريش على عمل ، فبلغه عنه انه قال :

اسقني شربة تروي عظامي * واسق بالله مثلها ابن هشام

فأشخصه اليه ، وفطن القرشي فضم اليه بيتا آخر ، فلما مثل بين يديه قال :

انت القائل : اسقني ...

قال : نعم يا امير المؤمنين ، فهلا ابلغك الواشي ما بعده .

قال : ما الذي بعده ؟ قال :

عسلا بارداً بماء غمام * انني لا احب شرب المدام

فقال : ارجع الى عملك » (2) .

---

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 98 .

(2) المصدر نفسه 3 / 98 .

د ـ سأل عمر احد امراء الشام عن سيرته وما يصنعه بالقرآن والاحكام ؟ فأجابه بما يرضيه ، فاستحسن ذلك منه واقره على عمله ، وامره بالالتحاق به ، « فلما ولى رجع فقال : يا امير المؤمنين اني رأيت البارحة رؤيا اقصها عليك .

رأيت الشمس والقمر يقتتلان ومع كل واحد منهما جنود من الكواكب ؟

فقال : فمع أيهما كنت ؟ قال : مع القمر .

فقال عزلتك ، لان الله قال : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (1) .

هـ ـ لما كتب النبي كتاب الصلح في الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو كان في الكتاب : ان من خرج من المسلمين الى قريش لا يرد .

ومن يخرج من المشركين الى النبي يرد اليهم ، غضب عمر وقال لابي بكر :

ماهذا ؟ ... ثم جاء الى النبي فجلس بين يديه ... وقال :

علام نعطي الدنية في ديننا ! فقال رسول الله : افعل ما يأمرني به ربي ...

فقام عمر مغضبا « وقال : والله لو اجد اعوانا لما اعطيت الدنية ابدا » (2) .

و - « خرج عمر بن الخطاب ... وعبد الرحمن بن عوف ليلا يطوفان في المدينة ، فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : الم انه عن المصابيح بعد النوم ؟ فانطلقنا فاذا قوم على شراب لهم ، قال : انطلق فقد عرفته ، فلما اصبح ارسل اليه . قال :

يا فلان كنت واصحابك البارحة على شراب ؟ قال : وما اعلمك يا امير المؤمنين ؟ قال :

شيء شهدته : قال او لم ينهك الله عن التجسس ؟ فتجاوز عنه » (3) .

* * *

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 98 الآية : 12 : الاسراء .
(2) المصدر نفسه 3 / 19 .
(3) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » 3 / 30 .

ذلك ما يتعلق باختلاف سيرة عمر نفسه حسب اختلاف وضعه النفسي .

اما ما يتعلق باختلاف سيرته عن الرسول فيمكننا ان نذكر الامثلة التالية ، بالاضافة الى طريقته في تقسيم الغنائم التي مر بنا ذكرها :

1 - « غزا رسول الله خيبر في سنة سبع ، فطاوله اهلها وما كثوه وقتلوا : المسلمين . فحاصرهم رسول الله قريبا من شهر ، ثم انهم صالحوه على حقن دمائهم ... ثم قالوا لرسول الله : ان لنا بالعمارة والقيام على النخل علما فأقرنا ، فأقرهم رسول الله وعاملهم على الشطر من الثمر ... فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ... اجلاهم وقسم خيبر بين من كان له فيها سهم من المسلمين » (1) .

2 - « حدثنا عمر الناقد ، حدثنا يزيد بن هارون ، اخبرنا يحيى بن سعيد عن بشير ابن يسار : ان النبي ... دفع خيبر الى اليهود يعملونها على نصف [ما] خرج منها ، فلم يزل على ذلك حياة رسول الله ، وابي بكر .

فلما كان عمر وكثر المال في ايدي المسلمين وقووا على عمارة الارض اجلى اليهود الى الشام وقسم الاموال بين المسلمين » (2) .

3 - « اتى رسول الله وادي القرى ، فدعى اهلها الى الاسلام ، فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا ، ففتحها رسول الله عنوة .. وترك النخيل والارض في ايدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر ، فقيل :

ان عمر اجلى يهودها وقسمها بين من قاتل عليها » (3) .

واما ما يتعلق باختلاف سيرة عمر عن سيرة ابي بكر فنذكر منها ، بالاضافة الى ما ذكرناه ، الحوادث التالية :

(1) البلاذري : « فتوح البلدان » ص 36 .

(2) المصدر نفسه ص 39 .

(3) المصدر نفسه ص 47 .

أ ـ « جاء عيينة بن حصين والاقرع بن حابس الى ابي بكر فقال :

يا خليفة رسول الله ان عندنا ارضا سبخة ليس فيها كلأ ولامنفعة ، فان رأيت ان تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها ، ولعل الله ان ينفع بها بعد اليوم ؟

فقال ابو بكر لمن حوله من المسلمين : ما ترون ؟ قالوا :

لا بأس ، فكتب لهما كتابا ، واشهد فيه شهودا ، ولم يكن عمر حاضرا ...

فلما سمع عمر ما في الكتاب اخذه منهما ... فمحاه ، فتذمرا .. فقال :

ان رسول الله كان يتألفكما والاسلام يومئذ ذليل ... وان الله قد اعز الاسلام فاذهبا ... فذهبا الى ابي بكر يتذمران .

وجاء عمر وهو مغضب ، حتى وقف على ابي بكر فقال :

اخبرني عن هذه الارض التي اقطعتها هذين ، اهي لك خالصة ، ام بين المسلمين عامة ؟ قال : بين المسلمين عامة ،

قال : من حملك على ان تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت الذين حولي ، فأشاروا بذلك ؟

فقال : افكل المسلمين اوسعهم مشورة ورضا ؟ » (1) .

ب ـ ذكر بعض الرواة في حديث فدك :

ان ابا بكر حينما قابلته السيدة فاطمة وذكرت له ان فدك لها نحلة من الرسول ، اقتنع بذلك بعد تردد ، فكتب لها كتابا بذلك ، غير ان عمر ـ على ما يذكر اولئك الرواة ـ قد صادفها في الطريق عائدة الى دارها من عند ابي بكر ، فذكرت له الكتاب ، فطلبه منها ومزقه ، ولام ابا بكر على ذلك ؟

ج ـ ويبدو اختلاف السيرتين واضحا في قضية خالد بن الوليد مع مالك ابن نويرة ، وهي قضية مهمة ؛ ونرى وجوب ذكرها بشيء من التفصيل . فقد ارتكب خالد ـ على ما نرى ـ سلسلة من الاخطاء الاجتماعية والدينية في هذه القضية :

---

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 108 الطبعة الاولى .

فقد سار الى مالك وصحبه دون امر من الخليفة ، وقاتلهم دون ان يكون هناك مبرر للقتال من الناحية الدينية ، وامر بقتل مالك بشكل من الغدر لا يجيزه الاسلام .

ونكح زوج مالك بشكل يتنافى هو والعفة والشرف وكبر النفس ... فاستحق بذلك اكثر من عقوبة ، غير ان ابا بكر عفا عنه فامتعض عمر من ذلك وعزله اثناء خلافته ـ والى القارىء ملخص القصة المذكورة :

ذكر ابن الاثير (1) : « سار خالد بعد ان فرغ من فزارة ، واسد ، وطيء ، يريد البطاح (2) وبها مالك بن نويرة قد تردد عليه امره . وتخلف الانصار عن خالد ، وقالوا :

ما هذا بعهد الخليفة الينا ، ان الخليفة عهد الينا ان نحن فرغنا من بزاخة (3) واسبرنا بلاد القوم ان نقيم حتى يكتب الينا ، فقال خالد :

انا الامير .. هذا مالك بن نويرة بحيالنا ، فانا قاصد اليه ومن معي من المهاجرين ..

وكان قد اوصاهم ابو بكر (4) ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلا .

فاذا اذن القوم ، فكفوا عنهم ، وان لم يؤذنوا فقاتلوهم .

---

(1) الكامل في التاريخ 2 / 242 ، 243 .

(2) البطاح ـ كغراب ـ وهو منزل لبني يربوع ـ وفي « مراصد الاطلاع » طبع عيسى الحلبي بالقاهرة 1 / 203 « بطاح ـ بالضم ـ : ماء في ديار بني اسد بن خزيمة » 1 هـ ، مصححة . « الناشر »

(3) بزاخة ـ بالضم ، والخاء معجمة ـ : قال الاصمعي : ماء لطيء ، بأرض نجد . وقال ابو عمرو : لبني اسد ، فيه كانت وقعة المسلمين مع طليحة في الردة ـ قال القعقاع يذكر يوم بزاخة :

ويوما على ماء البزاخة خالد * اثار بها في هبوة الموت عثيرا

1 هـ من « مراصد الاطلاع » 1 / 192 طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة . « الناشر »

(4) فيما يتصل بموقفهم من الذين امتنعوا عن اداء الزكاة باليسير اليهم الا في قضية مالك ابن نويرة التي لم يثبت للخليفة آنذاك امتناعه

وان اجابوا الى داعية الاسلام فسألوهم عن الزكاة ، فان اقروا فاقبلوا منهم .

وان ابوا فقاتلوهم ، فجاءت خالدا الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة ابن يربوع ، فاختلفت السرية فيهم .

وكان فيهم ابو قتادة فكان فيمن شهد انهم قد اذنوا وصلوا .

فلما اختلفوا امر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالد مناديا فنادى ادفئوا اسراكم ـ وهي في لغة كنانة القتل ـ ... فقتلوهم ... فتزوج خالدا ام تميم ، امرأة مالك .

فقال عمر لابي بكر : ان سيف خالد فيه رهق ، واكثر عليه في ذلك ، فقال :

هيه ياعمر !! تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد .

فدخل خالد على ابي بكر فأخبره الخبر واعتذر اليه ، فعذره وتجاوز عنه ، وعنفه في التزويج .

وقدم متمم بن نويرة على ابي بكر يطلب بدم اخيه ويسأله ان يرد عليهم سبيهم ؟ فأمر ابو بكر برد السبي ، وودى مالكا من بيت المال » .

وقد روى على ما يقول البلاذري (1) « ان متمم بن نويرة دخل على عمر ابن الخطاب (2) فقال له عمر : ما بلغ وجدك على اخيك مالك .

قال : بكيته حولا حتى اسعدت عيني الذاهبة (3) عيني الصحيحة ، وما رأيت نارا

(1) فتوح البلدان 107 ، 108 .

(2) اثناء خلافته حيث انشده مرثيته المشهورة التي يقول فيها :

وكنا كندمـائي جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا
فلما تـفرقنا كأني ومالكا * لطول اجـتماع لم نبت ليلة معا

(3) اسعدت عيني الذاهبة : الاسعاد لايكون الا في البكاء ـ قاله في المقاييس ، مادة « سعد » 3 / 75 طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة . « مصححه »

الا كدت انقطع لها اسفا عليه ، لانه كان يوقد ناره الى الصبح ، مخافة ان يأتيه ضعيف فلا يعرف مكانه » .

لابد ان القارىء قد لاحظ معنا ، في رواية ابن الاثير ، جملة مخالفات قام بها خالد بن الوليد :

1 ـ فقد سار ، كما ذكرنا ، الى قتال مالك دون ان يتلقى بذلك امرا من الخليفة .

2 ـ اهمل المبدأ العام الذي وضعه ابو بكر لمعالجة مشكلة المسلمين الذين اتهموا بالامتناع عن دفع الزكاة ـ ذلك المبدأ الذي يتلخص ، كما ذكرنا ، بأن يؤذن في وقت الصلاة مؤذن من جيش المسلمين ، فان اذن المتهمون بالامتناع عن دفع الزكاة فلا يجوز قتالهم ابتداء . ثم يسألون عن امر الزكاة . فان اقروا ـ اي اعترفوا بوجوبها ـ حرمت على خالد وصحبه دماؤهم واموالهم .

اي ان الخليفة لم يشترط اخذ الزكاة من القوم وانما اشترط اقرارهم بها . فاذا اقروا بذلك ، صانوا ارواحهم واموالهم من عبث العابثين ،

وقد شهد ابو قتادة كما ذكرنا بأن اصحاب مالك بن نويرة قد اذنوا واقاموا وصلوا ـ اي انهم ذهبوا الى ابعد من مجرد الاذان الذي جعله الخليفة كافيا لتحريم قتالهم .

3 ـ ان خالدا امر بقتلهم غدرا بذلك الشكل الشنيع فأدفأهم ـ على لغة كنانة ـ (1) وكان باستطاعته وقد اصبحوا في اسره ، وتحت رحمته ان يرسلهم الخليفة بعد ان يتأكد من خروجهم على مبادىء الاسلام ، واصرارهم على ذلك الخروج ليفعل الخليفة بهم ما يشاء .

4 ـ وتزوج خالد ام تميم امرأة مالك في الوقت الذي قتل فيها زوجها ـ وفي هذا ما فيه من خروج على مبادىء الدين الحنيف وتدن عن المستويات الخلقية الرفيعة .

(1) مما لاشك فيه ان خالدا قصد بعبارة « ادفئوا اسراكم » قتلهم ، لانه حبسهم « عند ضرار بن الازور ... وكان كنانيا » . ابن خلدون في « كتاب العبر » 2 / 278 .

حديث السقيفة

ب ـ عمر بن الخطاب

« اما والله لقد تقمصها ابن (1) ابي قحافة ، وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى .. فسدلت دونها ثوباً .. حتى اذا مضى الاول لسبيله فأدلى بها الى ابن الخطاب بعده .. فصبرت على طول المدة وشدة المحنة .. فواعجبا بينما هو يستقيلها في حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لشد ما تشطرا ضرعيها » .

وهكذا كان : انتقلت الخلافة التي تسلمها ابو بكر ، بجهود عمر كما ذكرنا في حديث السقيفة ، الى عمر نفسه بعد وفاة صاحبه ، وقبل ان يوصى ابو بكر بالخلافة من بعده لعمر ، استدعى قبل وفاته عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، لاستشارتهما في موضوع تخليفه عمر بن الخطاب ، فسألهما رأيهما في عمر ، فكان جواب الاول :

ان عمر « افضل من رأيك فيه » (2) ـ مع العلم ان عمر كان يحتل المركز الاول

---

(1) تقمصها ، جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرها للعلم بها ... فسدلت : ارخيت ... ومضى لسبيله : مات ... وقوله فأدلى بها من قوله تعالى « **ولاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام** البقرة 188 » اي تدفعوها اليهم رشوة . واصلها من ادلت الدلو في البئر ارسلتها ... كان علي يرى العدول عنه الى غيره اخراج لها الى غير جهة الاستحقاق ... من باب الاستعارة . ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 1 / 50 - 67 ، الطبعة الاولى .

(2) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 239 .

عند ابي بكر ، فكيف به اذا كان احسن من رأى ابي بكر فيه !!؟

وكان جواب الثاني « ان سريرته خير من علانيته ، وان ليس فينا مثله » (1) .

ولاندري فيما اذا كان الرجلان يؤمنان حقا بما قالاه ، ام انهما عرفا اتجاه الخليفة فجاملاه !! ؟

وعلى اي حال فقد امر ابو بكر عثمان ان يكتب عهده لعمر كما هو معروف .

ويذكر المؤرخون : ان ابا بكر عندما كان يملي عهده لابن الخطاب على عثمان اغمى عليه قبل ان يذكر اسم ابن الخطاب .

وان عثمان وضعه من نفسه مستدلا على ذلك من الاتجاه العام لمجرى الامور .

فلما افاق ابو بكر : قرأ العهد عثمان عليه ، فأقره واستحسنه ـ ولسنا نعلم كيف اجاز عثمان لنفسه ذلك ؟ اينسجم ذلك العمل مع اوليات مبدأ الامانة ؟

ولو فرضنا ان ابا بكر قد توفى اثناء تلك الاغماءة ، فهل يجوز اعتبار العهد سليما من الناحية الشرعية ؟

ولا ندري لماذا استشار ابو بكر عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان دون سائر الصحابة ، ولماذا فكر ابو بكر في امر الخلافة بعده ، من الناحية المبدئية العامة ـ بغض النظر عن تولية عمر بالذات ـ في حين ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من وجهة نظر ابي بكر ، لم يفكر في هذا الامر ؟

واذا كانت مصلحة المسلمين تستلزم ذلك ، فهل يكون ابو بكر احرص من النبي صلى الله عليه وسلم عليها ، واذا كان ترك الرسول امر الخلافة من بعده للمسلمين انفسهم ـ حسب وجهة نظر بعض المسلمين ـ سنة ، فهل ايصاء ابي بكر لعمر يتفق مع السنة ؟

ثم لماذا سأل ابو بكر : عبد الرحمن وعثمان عن رأيهما في عمر بالذات دون سواه من المسلمين ! والشيء الذي لا يرقى اليه الشك هو :

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن ابي طالب 1 / 240 .

« ان ابا بكر رأى لعمر عليه حقا حين استخلفه .. ولكن الاسلوب الذي انتهجه عند الاختيار كان اسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والاخطاء !

فان الشيخ لم يتناول الامر بالصراحة الواجبة ، بل بدأ كأنه اضمر التثبيت ، وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول ، ووقع بهذا في الخطأ الذي وقع فيه عمر من قبل عند وفاة الرسول ..

اسقط ابو بكر من حسابه : عليا ، الذي كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه » (1) .

ومما يلفت النظر في الامر حقاً ، كما سلف ان ذكرنا ، ان ابا بكر الذي كان يذهب مذهب القائلين بأن النبي ترك امر الخلافة من بعده للمسلمين قد اوصى بالخلافة من بعده لعمر !؟ .

* * *

« حتى اذا مضى الثاني لسبيله جعلها في جماعة زعم اني احدهم .. فيا لله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر !! » (2) .

قال عمر بن ميمون الاسدي ، على ما يذكر ابن الاثير (3) :

« لما طعن عمر بن الخطاب (4) قيل له : يا امير المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال :

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود 1 / 238 .

(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 1 / 50 - 67 الطبعة الاولى .

(3) الكامل في التاريخ 3 / 34 .

(4) والى القارىء ما ذكره ابن خلدون في مسألة مصرع الخليفة الثاني « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر 2 / 362 » « كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه ابو لؤلؤه ، وكان يشدد عليه في الخراج ، فلقى

يوما عمر في السوق فشكا اليه وقال : اعدني على المغيرة ، فانه يثقل عليّ في الخراج درهمين في كل يوم ، قال : وما صناعتك ؟ قال : نجار ، حداد ، نقاش ، فقال : ليس ذلك بالكثير على هذه الصنائع .. وقد بلغني انك تقول : اصنع رحى =

من استخلف ؟ لو كان ابو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربي ـ ان سألني ـ سمعت نبيك يقول : انه امين هذه الامة .

ولو كان سالم مولى حذيفة حيا لاستخلفته وقلت لربي ـ ان سألني ـ سمعت نبيك يقول : « ان سالما شديد الحب لله » .

وعندي لو ان ابا عبيدة كان حيا لاستخلفه عمر ، لا لكونه امين هذه الامة ـ على حد تعبير ابن الخطاب ـ ولكن لانه كان ثالث : اصحاب السقيفة ، ولتأخر بذلك استخلاف عثمان بن عفان ، ولاصبح الخلفاء الراشدون خمسة في حالة وصول الخلافة لعلي ، وجريان الاحداث في عهد عثمان ـ الخليفة الرابع ـ على الشكل الذي جرت عليه في عهده ـ وهو : الخليفة الثالث .

ولاندري ما الذي حال بين عمر وبين دفع الخلافة الى ابي عبيدة بعد وفاة الرسول مادام قد سمع قول النبي الآنف الذكر !! وان يقترح على الانصار في السقيفة ان يحولوا الخلافة الى ابن الجراح ، او الى سالم !! او ان يقول لابي بكر آنذاك حين طلب من الانصار ان يبايعوا عمراً وابا عبيدة ـ اننا نبايع ابا عبيدة او سالما ، لان الرسول قال فيهما : كذا وكذا !!

ولماذا بايع ابن الخطاب ابا بكر بالخلافة دون ان يقول فيه الرسول ماقاله في ابي عبيدة او في سالم ؟؟ . ولماذا لم يقترح عمر على ابي بكر ان يسلم الخلافة من بعده الى ابي عبيدة بدلا من عمر نفسه ؟ (1) .

= تطحن بالريح ، فاصنع لي رحى ، قال : اصنع لك رحى يتحدث الناس بها ! ؟ وانصرف ، فقال عمر : توعدني العلج !! فلما اصبح الصباح خرج عمر الى الصلاة ... ودخل ابو لؤلؤة وبيده الخنجر ، فضرب عمر » .

(1) لان سالما قتل في اوئل خلافة ابي بكر اثناء حرب الذين اتهموا بالامتناع عن اداء الزكاة .

واذا كانت شروط الخلافة لاتخرج عن توافر حب الشخص لله او كونه امين هذه الامة بشهادة الرسول فعلي بن ابي طالب اولى من غيره ؛ فكيف غاب عن ذهن عمر قول رسول الله يوم خيبر على ما ذكره الامام مسلم في صحيحه (1).

« لاعطين هذه الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله » الى آخر الحديث وتسليمه الراية لعلي ؟

ومهما يكن من شيء فقد استدعى عمر بن الخطاب قبيل وفاته علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وسعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام وقال لهم : « اذا مت تشاوروا ثلاثة ايام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم ، وليحضر عبد الله بن عمر مشيرا .. وطلحة بن عبيد الله (2) شريككم في الامر . فان قدم الثلاثة فاحضروه امركم .

وقال لابي طلحة الانصاري : اختر خمسين رجلا من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال للمقداد بن الاسود : اذا وضعتموني في حفرتي (3) فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم .. فان

اجتمع خمسة وابى واحد فاشرخ رأسه بالسيف .

وان اتفق اربعة وابى اثنان فاضرب رؤوسهما .

وان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فان لم يرضوا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف (4) .

واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما مات عمر واخرجت جنازته صلى عليه صهيب ، فلما دفن جمع المقداد اصحاب

---

(1) صحيح مسلم 2 / 224 .

(2) وكان غائبا عن المدينة آنذاك .

(3) تذكر ان جثمان الرسول لم يوضع في حفرته وعقد اجتماع السقيفة المشهور .

(4) تذكر شهادة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان عند ابي بكر بشأن استخلافه عمر ، وما صنعه عثمان عند كتابته عهد ابي بكر لعمر .

الشورى ... وطلحة غائب ... فقال عبد الرحمن :

ايكم يخرج منها نفسه .. على ان يوليها افضلكم ؟ فلم يجبه احد ، فقال :

فأنا انخلع منها ، فقال عثمان : انا اول من رضى ، وقال القوم : قد رضينا ، وعلي ساكت ، فقال :

ما تقول يا ابا الحسن ؟ قال :

اعطني موثقا لتؤثرن الحق ، ولاتتبع الهوى ، ولاتخص ذا رحم ، ولاتألوا الامة نصحا » (1) فأعطاه الموثق المطلوب (2) .

وبعد نقاش طويل بين الحاضرين نظر ابن عوف الى علي بن ابي طالب وقال : « ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين ابي بكر وعمر ، فقال علي :

بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي :

فعدل عنه الى عثمان ، فعرض عليه ذلك ، فقال : نعم ، فعاد على علي . ، فأعاد قوله ... فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثا .

فلما رأى عليا غير راجع عما قاله ، وان عثمان ينعم بالاجابة صفق على يد عثمان وقال : السلام عليك يا امير المؤمنين .. ويقال :

ان عليا قال : والله ما فعلتها الا لانك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه » (3) .

---

(1) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » 3 / 35 ، 36 .

(2) وما اكثر اعطاء المواثيق في امثال هذه الامور الخطيرة لغرض الحصول على الغاية المرجوة . ومن ثم يبدأ التسويف والمماطلة والانحراف ، وما اكثر الذين يدفعهم ايمانهم الخالص الى وضع تلك المواثيق ظنا منهم انهم ما داموا لا يستطيعون ان يخرجوا علمها فان غيرهم لايستطيع ايضا ان يخرج عليها .

فهل فعل ذلك عبد الرحمن عفوا ام انه امر مبيت قبل الاجتماع ؟ !

اليس القصد من وضعه شرط اتباع سيرة الشيخين يتضمن سلما اخراج علي من الموضوع . على ان موضوع الشورى مع هذا يحتاج الى مناقشة وتدقيق .

وقبل ان نتصدى لمناقشته يجمل بنا ان نشير الى الامرين التاليين :

1 ـ ذكر الطبري (1) رواية تتعلق بتصريح لعمر بن الخطاب اثناء انشغاله في قضية الشورى فحواه : ان عمر لما طعن ورفض امر الاستخلاف ، وندم على وفاة ابي عبيدة وسالم ، كما ذكرنا .

قال لبعض عانديه من الصحابة وفيهم علي ـ قبل تعيين رهط الشورى ـ « اني كنت قد اجمعت قبل مقالتي لكم ان انظر فأولى رجلا امركم هو احراكم ان يحملكم على الحق ـ واشار الى علي .

ورهقتني غشية فرأيت رجلا دخل جنة ثم غرسها . فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه اليه ، ويصيره تحته . فعلمت ان الله غالب على امره ، ومتوف عمر ، فما اريد ان اتحملها حيا وميتا .

عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله : انهم من اهل الجنة :

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ، ولست مدخله .. وما اظن ان يلي الامر الا احد هذين الرجلين : علي وعثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين .

وان ولى علي ففيه دعابة واحرى به ان يحملهم على طريق الحق »

2 ـ وكتب مؤرخ آخر (2) ان عمر كان قد استدعى قبل ان يبت في امر الشورى كلا من الزبير وطلحة ـ قبل سفره من المدينة ـ وسعد وعبد الرحمن

---

(1) « تاريخ الامم والملوك » 5 / 34 ، 35 .

(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 170 طبعة مصر الاولى .

وعلي وعثمان ، وقال :

« ما انت يا زبير ! ... يوما انسان ويوما شيطان .

وما انت ياطلحة ! فقد مات رسول الله ساخطا عليك بالكلمة التي قلتها يوم انزلت آية الحجاب ـ وفي رواية اخرى :

« الست القائل : ان قبض محمد انكح ازواجه من بعده ، فما جعل الله محمداً احق ببنات اعمامنا منا ! فأنزل الله فيك قوله :

« وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً » (1) .

قال شيخنا ابوعثمان الجاحظ : لو قال لعمر قائل : انت قلت : ان رسول الله مات وهو راض عن الستة فكيف تقول لطلحة : انه مات ساخط عليك للكلمة التي قلتها ، لكان قد رماه بمشاقصة ..

ثم اقبل عمر على سعد فقال : اما انت فصاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس ، ومازهرة والخلافة ، وامور الناس ! ثم اقبل على عبد الرحمن فقال . ليس يصلح هذا الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما « زهرة » وهذه الامرة !

ثم اقبل على علي فقال : لله انت لولا دعابة فيك !

اما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح .

ثم اقبل على عثمان فقال : هيا اليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الامر فحملت بني امية وبني ابي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء » .

واذا امعنا النظر في قضية الشورى ، على الشكل الذي ذكرناه ، اتضح لنا ان عمر قد حددها تحديدا دقيقا وبين رأيه فيها فجعلها شورى مشروطة لا مطلقة .

واول ما يتبادر الى ذهن المرء في هذا الاشتراط هو رغبة عمر في حصول الاجماع بين رجال الشورى . وهو امر - دون شك - على جانب كبير من الوجاهة

---

(1) الاحزاب : 53 .

من الناحية المبدئية ، غير ان عمر قد قيد الشرط ايضا - اي انه جعل الشرط نفسه مشروطا ، ان جاز هذا التعبير - فأمر المشرف على شئون الشورى ان يشرخ رأس من يخالف الاكثرية ، ورؤوس المخالفين - في حالة انقسام المؤتمرين فيما بينهم الى نصفين - للرأي المخالف للنصف الذي فيه عبد الرحمن ابو عوف .

ولسنا نعرف السر الذي دفع عمر الى ايثار ابن عوف بذلك سوى علاقات شخصية بين الرجلين ذكر الطبري (1) طرفا منها !!

ولم يعر ابن الخطاب على مايبدو اية اهمية للأسس التي يستند اليها من يخالف رأي اكثرية المجتمعين ، او رأى النصف الذي ينحاز اليه ابن عوف .

وهل يجيز القرآن او سنة الرسول ضرب اعناق رجال من المسلمين لمجرد انهم يجتهدون برأي يخالف الرهط الذي فيه عبد الرحمن بن عوف .

فكيف وهؤلاء المسلمين من خيرة اصحاب النبي بشهادة عمر نفسه ؟ فقد استباح ابن الخطاب دماءهم بعد ثلاثة ايام فقط من بدء التداول في امر الشورى الذي يتوقف عليه مصير المسلمين .

ثم الم يكن تفكير عمر في امر خلافة المسلمين من بعده ، كما فعل ابو بكر ، يخالف سنة الرسول الذي مات - من وجهة نظر عمر - ولم يوص بالخلافة لاحد من بعده ؟

ثم الا يجوز لنا ان نسأل عن حق هؤلاء الرهط في تقرير مصير الخلافة دون سائر المسلمين ؟ واذا كان مجرد رضا النبي عنهم ، اذا فرضنا صحة ذلك ، مع العلم ان بعض المؤرخين - كما سلف ان ذكرنا - قد اشار الى غضب الرسول

على طلحة كافيا لترشيحهم للشورى ، فلماذا لم يدخل عمر آخرين ممن كان الرسول راضيا عنهم من المهاجرين والانصار ؟

---

(1) « تاريخ الامم والملوك 5 / 20 ، 51 و 4 / 162 ـ وكان ابن عوف من اكابر المترفين في الجاهلية والاسلام « وكان مترفا في طعامه ولباسه وسكنه ، وقد سمح له الرسول ، على ما يذكره الرواة : ان يلبس الحرير لحكة كانت في جلده .

واذا كان سعيد بن عمرو بن نفيل حائزا على شروط الشورى ، باعتراف عمر نفسه ـ كما ذكرنا ـ فماذا استثناه عمر وحرمه من المساهمة في هذا الامر العظيم ؟ وحرم رجال الشورى من رأيه ؟

ومن الغريب ان يصف عمر عليا بالدعابة ، ولم نسمع احدا غير عمر وصفه بذلك فقد كان علي معروفا بالزكانة والبعد عن المزاح والدعابة .

هذا معلوم ضرورة لمن سمع اخباره .. وقد روى عن ابن عباس انه قال :

كان امير المؤمنين اذا اتى هبنا ان نبدأه بالكلام .

وهذا لا يكون الا من شدة التزمت والتوقر ، وما يخالف الدعابة والفكاهة (1)

ثم الا يوجد تفاوت كبير بين رجال الشورى من حيث موقعهم من الرسول واثرهم في الاسلام . فلماذا اعتبرهم عمر على درجة واحدة من الاثر في هذا الباب .

ثم اليست هناك روابط عائلية ومصلحية بين رجال الشورى .

الا تؤثر تلك الروابط على سلامة الاختيار .

الم يقل عمر للزبير : انك يوما شيطان ويوما انسان ... ولطلحة :

ما انزله الله فيه من قرآن . ولسعد ... « فمن ذا يستطيع ان يقول : ان عمر لم يحدد موقفه من الشورى غاية التحديد .

ولم يقطع على علي ـ بالتلميح او التصريح ـ الطرق الى ولاية الناس ...

لقد الب عمر على علي احقاد قريش . فمن لعلي برضى تيم وقد نافس شيخها ابا بكر

وهذا طلحة التميمي ! ، ومن له بمحو الاحقاد الاموية من بني هاشم .

وهذا عثمان ! وقد ضمت الشورى ايضا سعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ولكليهما نسب موصول ببني امية .

اتى الاول من ناحية امه حمنة بنت سفيان .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 170 طبعة مصر الاولى .

واتى الثاني من ناحية زوجه ام كلثوم بنت عقبة اخت عثمان (1) .

ولنعد ثانية الى نص عبارة ابن الخطاب لرجل الشورى .

اليست صيغتها توحى بترشيح عمر عثمان لولاية المسلمين .

وهل الدعابة المزعومة في علي ـ على فرض وجودها جدلا ـ عامل حاسم في ابعاد علي عن الخلافة على الرغم من انه يحملهم بشهادة عمر نفسه ، على الحق الواضح .

ثم اذا كان عمر ـ على مايروي الطبري ـ قد ارتأى ان يولى امور المسلمين رجلا هو احراهم ان يحملهم على الحق ـ واشار الى علي ـ فماذا اقلع عن ذلك لالشيء وجيه سوى طيف الم به على ما ذكر هو حسب رواية الطبري .

والخلاصة « ان قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها ـ برهة ـ ذهن المتدبر ، لان فيها ... خروجا على مبدأ الشورى .. وتحكم الفرد في الجماعة ... وفي نفر اختاره وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه ...

وفيها تعسف التسوية بين ستة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا سواء ... وفيها تكتل القوى العصبية » (2) .

ذلك ما يتصل بأمر الشورى بشكل عام .

اما ما يتصل بتفاصيل اجتماع رجالها بعد وفاة الخليفة ، فان اول شيء « مكر به عبد الرحمن انه ابتدأ فأخرج نفسه من الامر ليتمكن من صرفه الى من يريد ليقال : انه لولا ايثاره للحق ، وزهده في الولاية ، لما اخرج نفسه منها » (3)

ولاندري فيما اذا كان تصرف ابن عوف قد حصل عفوا ، ومن وحي الساعة ام انه امر متفق عليه قبل وفاة الخليفة !

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 275 ، 276 .

(2) المصدر نفسه 1 / 123 ، 124 .

(3) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 172 طبعة / مصر الاولى .

ثم ان عبد الرحمن باخراجه نفسه من الموضوع قد حصل على امتياز خاص جعل امر الخلافة منوطا به ، وقد حصل على ذلك الامتياز دون ان يخسر شيئا في الواقع ، ذلك لانه اخرج نفسه من امر ـ الخلافة ـ ما زال الى وقت خروجه منه غير مبتوت فيه .

فلماذا اذن وقف ابن عوف موقفه المعروف فخلع نفسه من الخلافة ـ وهو امر لا يملكه قبل عملية الشورى وفي حالة انتخابه للخلافة .

ثم الم تؤثر صلة نسبه بعثمان في موقفه من علي .

ولماذا اشترط عبد الرحمن ان يسير علي على ما سماه « سيرة الشيخين » بالاضافة الى القرآن وسنة الرسول .

هل سار الشيخان على القرآن وسنة النبي وسيرة الشيخين . ام على القرآن والسنة حسب اجتهاد كل منهما ـ كما اراد

على ان يسير .

ثم هل هناك شيء محدد اسمه « سيرة الشيخين » .

الم يختلف الشيخان اختلافات كثيرة فيما بينهما . وبقدر ما يتعلق الامر باختلاف سيرة ابي بكر في الخلافة عن سيرة عمر ـ في كثير من القضايا ـ يمكننا ان نذكر بعض الامثلة على سبيل التمثيل لا الحصر .

ويجمل بنا قبل ذلك ان نشير الى ان عمر نفسه كثيرا ما تختلف سيرته عن سيرة النبي في بعض التصرفات العامة ـ من ذلك مثلا طريقته في تقسيم العطاء بين المسلمين : اذ لابد ان حضرته آنذاك عوامل رجحت لديه رأيه .

ولكن مما لا ريب فيه ان عوامل اخرى اقوى من السالفة قد غابت عنه ، وكان اجدى به .. ان يعدل عما حزم عليه امره .. ولكنه رأى رأيا فالتزمه ... وان رسول الله صاحب خير الآراء كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينما نسمع

الصديق يأبى ان يفضل اهل السابقة الى الاسلام على غيرهم .. اذ بابن الخطاب من بعده يخالفه » (1) .

« ولعل آفة عمر كانت دفعته ـ تلك التي اوقفته دائما مواقف انكرها من نفسه كلما فاتت آونتها واتسع امامه مجال التفكير ...

وقد طالما افتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى .

وقد طالما دفعته الرغبة في الاصلاح الى سن الشرعة .. فاذا بها لا تلبث ان تتقوض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره » (2) .

وطالما عمل عملا بالاستناد الى قناعته الشخصية ثم عاد فأقلع عنه اذا تغيرت قناعته من ذلك ، مثلا : ـ

أ ـ اتاه رجل فقال : « يا امير المؤمنين ان فلانا ظلمني فأعدني عليه ، فرفع في السماء درته وضرب رأسه ، وقال : تدعون عمر وهو معرض لكم ، وحتى اذا شغل بأمر المسلمين اتيتموه : اعدني !! فانصرف الرجل يتذمر .

فقال عمر : عليّ بالرجل ، فجيء به . فألقى اليه المخفقة فقال : اقتص ، قال :

بل ادعه لله ولك ، قال : ليس كذلك ، بل تدعه اما لله وارادة ما عنده ، واما تدعه لي ، قال : ادعه لله ، قال . انصرف .

ثم جاء حتى دخل منزله .. فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس فقال :

يا ابن الخطاب ، كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك ... ثم حملك على رقاب الناس ، فجاء رجل ليستعديك على من ظلمه فضربته ، ماذا تقول لربك غدا » (3)

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود : « الامام علي بن ابي طالب » 2 / 9 ، 10 .

(2) المصدر نفسه 1 / 250 ، 251 .

(3) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 97 طبعة مصر الاولى .

ب ـ « استعمل عمر : النعمان بن عدي بن نفيلة على ميسان . فبلغه عنه الشعر الذي قال فيه :

ومـن مبلغ الحسناء ان خيلها * بـميسان يسقى من زجاج وحنتم

اذا شئت غنتنى دهـاقين قرية * وصناجـة تحد على كـل منسم

فان كنت ندماني فبالاكبر اسقنى * ولا تـسقنى بالاصغر الـمتثلم

لـعل امير المؤمنين يسـوؤه * تنـادمنا بالجوسـق المتهـدم

فكتب اليه :

اما بعد .. فقد بلغني قولك .. وايم الله انه يسوؤني ، فأقدم فقد عزلتك .

فلما قدم عليه قال : يا امير المؤمنين ما شربتها قط ، وانما هو شعر طفح على لساني ، واني لشاعر !

فقال عمر : اظن ذاك ، ولكن لاتعمل لي عملا ابداً » (1) .

ج ـ استعمل عمر رجلا من قريش على عمل ، فبلغه عنه انه قال :

اسقني شربة تروي عظامي * واسق بالله مثلها ابن هشام

فأشخصه اليه ، وفطن القرشي فضم اليه بيتا آخر ، فلما مثل بين يديه قال :

انت القائل : اسقني ...

قال : نعم يا امير المؤمنين ، فهلا ابلغك الواشي ما بعده .

قال : ما الذي بعده ؟ قال :

عسلا بارداً بماء غمام * انني لا احب شرب المدام

فقال : ارجع الى عملك » (2) .

---

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 98 .

(2) المصدر نفسه 3 / 98 .

د ـ سأل عمر احد امراء الشام عن سيرته وما يصنعه بالقرآن والاحكام ؟ فأجابه بما يرضيه ، فاستحسن ذلك منه واقره على عمله ، وامره بالالتحاق به ، « فلما ولى رجع فقال : يا امير المؤمنين اني رأيت البارحة رؤيا اقصها عليك .

رأيت الشمس والقمر يقتتلان ومع كل واحد منهما جنود من الكواكب ؟

فقال : فمع أيهما كنت ؟ قال : مع القمر .

فقال عزلتك ، لان الله قال : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (1) .

هـ ـ لما كتب النبي كتاب الصلح في الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو كان في الكتاب : ان من خرج من المسلمين الى قريش لا يرد .

ومن يخرج من المشركين الى النبي يرد اليهم ، غضب عمر وقال لابي بكر :

ماهذا ؟ ... ثم جاء الى النبي فجلس بين يديه ... وقال :

علام نعطي الدنية في ديننا ! فقال رسول الله : افعل ما يأمرني به ربي ...

فقام عمر مغضبا « وقال : والله لو اجد اعوانا لما اعطيت الدنية ابدا » (2) .

و - « خرج عمر بن الخطاب ... وعبد الرحمن بن عوف ليلا يطوفان في المدينة ، فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : الم انه عن المصابيح بعد النوم ؟ فانطلقنا فاذا قوم على شراب لهم ، قال : انطلق فقد عرفته ، فلما اصبح ارسل اليه . قال :

يا فلان كنت واصحابك البارحة على شراب ؟ قال : وما اعلمك يا امير المؤمنين ؟ قال :

شيء شهدته : قال او لم ينهك الله عن التجسس ؟ فتجاوز عنه » (3) .

* * *

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 98 الآية : 12 : الاسراء .
(2) المصدر نفسه 3 / 19 .
(3) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » 3 / 30 .

ذلك ما يتعلق باختلاف سيرة عمر نفسه حسب اختلاف وضعه النفسي .

اما ما يتعلق باختلاف سيرته عن الرسول فيمكننا ان نذكر الامثلة التالية ، بالاضافة الى طريقته في تقسيم الغنائم التي مر بنا ذكرها :

1 - « غزا رسول الله خيبر في سنة سبع ، فطاوله اهلها وما كثوه وقتلوا : المسلمين . فحاصرهم رسول الله قريبا من شهر ، ثم انهم صالحوه على حقن دمائهم ... ثم قالوا لرسول الله : ان لنا بالعمارة والقيام على النخل علما فأقرنا ، فأقرهم رسول الله وعاملهم على الشطر من الثمر ... فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ... اجلاهم وقسم خيبر بين من كان له فيها سهم من المسلمين » (1) .

2 - « حدثنا عمر الناقد ، حدثنا يزيد بن هارون ، اخبرنا يحيى بن سعيد عن بشير ابن يسار : ان النبي ... دفع خيبر الى اليهود يعملونها على نصف [ما] خرج منها ، فلم يزل على ذلك حياة رسول الله ، وابي بكر .

فلما كان عمر وكثر المال في ايدي المسلمين وقووا على عمارة الارض اجلى اليهود الى الشام وقسم الاموال بين المسلمين » (2) .

3 - « اتى رسول الله وادي القرى ، فدعى اهلها الى الاسلام ، فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا ، ففتحها رسول الله عنوة .. وترك النخيل والارض في ايدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر ، فقيل :

ان عمر اجلى يهودها وقسمها بين من قاتل عليها » (3) .

واما ما يتعلق باختلاف سيرة عمر عن سيرة ابي بكر فنذكر منها ، بالاضافة الى ما ذكرناه ، الحوادث التالية :

(1) البلاذري : « فتوح البلدان » ص 36 .

(2) المصدر نفسه ص 39 .

(3) المصدر نفسه ص 47 .

أ ـ « جاء عيينة بن حصين والاقرع بن حابس الى ابي بكر فقال :

يا خليفة رسول الله ان عندنا ارضا سبخة ليس فيها كلأ ولامنفعة ، فان رأيت ان تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها ، ولعل الله ان ينفع بها بعد اليوم ؟

فقال ابو بكر لمن حوله من المسلمين : ما ترون ؟ قالوا :

لا بأس ، فكتب لهما كتابا ، واشهد فيه شهودا ، ولم يكن عمر حاضرا ...

فلما سمع عمر ما في الكتاب اخذه منهما ... فمحاه ، فتذمرا .. فقال :

ان رسول الله كان يتألفكما والاسلام يومئذ ذليل ... وان الله قد اعز الاسلام فاذهبا ... فذهبا الى ابي بكر يتذمران .

وجاء عمر وهو مغضب ، حتى وقف على ابي بكر فقال :

اخبرني عن هذه الارض التي اقطعتها هذين ، اهي لك خالصة ، ام بين المسلمين عامة ؟ قال : بين المسلمين عامة ،

قال : من حملك على ان تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت الذين حولي ، فأشاروا بذلك ؟

فقال : افكل المسلمين اوسعهم مشورة ورضا ؟ » (1) .

ب ـ ذكر بعض الرواة في حديث فدك :

ان ابا بكر حينما قابلته السيدة فاطمة وذكرت له ان فدك لها نحلة من الرسول ، اقتنع بذلك بعد تردد ، فكتب لها كتابا بذلك ، غير ان عمر ـ على ما يذكر اولئك الرواة ـ قد صادفها في الطريق عائدة الى دارها من عند ابي بكر ، فذكرت له الكتاب ، فطلبه منها ومزقه ، ولام ابا بكر على ذلك ؟

ج ـ ويبدو اختلاف السيرتين واضحا في قضية خالد بن الوليد مع مالك ابن نويرة ، وهي قضية مهمة ؛ ونرى وجوب ذكرها بشيء من التفصيل . فقد ارتكب خالد ـ على ما نرى ـ سلسلة من الاخطاء الاجتماعية والدينية في هذه القضية :

---

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 108 الطبعة الاولى .

فقد سار الى مالك وصحبه دون امر من الخليفة ، وقاتلهم دون ان يكون هناك مبرر للقتال من الناحية الدينية ، وامر بقتل مالك بشكل من الغدر لا يجيزه الاسلام .

ونكح زوج مالك بشكل يتنافى هو والعفة والشرف وكبر النفس ... فاستحق بذلك اكثر من عقوبة ، غير ان ابا بكر عفا عنه فامتعض عمر من ذلك وعزله اثناء خلافته ـ والى القارىء ملخص القصة المذكورة :

ذكر ابن الاثير (1) : « سار خالد بعد ان فرغ من فزارة ، واسد ، وطيء ، يريد البطاح (2) وبها مالك بن نويرة قد تردد عليه امره . وتخلف الانصار عن خالد ، وقالوا :

ما هذا بعهد الخليفة الينا ، ان الخليفة عهد الينا ان نحن فرغنا من بزاخة (3) واسبرنا بلاد القوم ان نقيم حتى يكتب الينا ، فقال خالد :

انا الامير .. هذا مالك بن نويرة بحيالنا ، فانا قاصد اليه ومن معي من المهاجرين ..

وكان قد اوصاهم ابو بكر (4) ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلا .

فاذا اذن القوم ، فكفوا عنهم ، وان لم يؤذنوا فقاتلوهم .

---

(1) الكامل في التاريخ 2 / 242 ، 243 .

(2) البطاح ـ كغراب ـ وهو منزل لبني يربوع ـ وفي « مراصد الاطلاع » طبع عيسى الحلبي بالقاهرة 1 / 203 « بطاح ـ بالضم ـ : ماء في ديار بني اسد بن خزيمة » 1 هـ ، مصححة . « الناشر »

(3) بزاخة ـ بالضم ، والخاء معجمة ـ : قال الاصمعي : ماء لطيء ، بأرض نجد . وقال ابو عمرو : لبني اسد ، فيه كانت وقعة المسلمين مع طليحة في الردة ـ قال القعقاع يذكر يوم بزاخة :

ويوما على ماء البزاخة خالد * اثار بها في هبوة الموت عثيرا

1 هـ من « مراصد الاطلاع » 1 / 192 طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة . « الناشر »

(4) فيما يتصل بموقفهم من الذين امتنعوا عن اداء الزكاة باليسير اليهم الا في قضية مالك ابن نويرة التي لم يثبت للخليفة آنذاك امتناعه

وان اجابوا الى داعية الاسلام فسألوهم عن الزكاة ، فان اقروا فاقبلوا منهم .

وان ابوا فقاتلوهم ، فجاءت خالدا الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة ابن يربوع ، فاختلفت السرية فيهم .

وكان فيهم ابو قتادة فكان فيمن شهد انهم قد اذنوا وصلوا .

فلما اختلفوا امر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالد مناديا فنادى ادفئوا اسراكم ـ وهي في لغة كنانة القتل ـ ... فقتلوهم ... فتزوج خالدا ام تميم ، امرأة مالك .

فقال عمر لابي بكر : ان سيف خالد فيه رهق ، واكثر عليه في ذلك ، فقال :

هيه ياعمر !! تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد .

فدخل خالد على ابي بكر فأخبره الخبر واعتذر اليه ، فعذره وتجاوز عنه ، وعنفه في التزويج .

وقدم متمم بن نويرة على ابي بكر يطلب بدم اخيه ويسأله ان يرد عليهم سبيهم ؟ فأمر ابو بكر برد السبي ، وودى مالكا من بيت المال » .

وقد روى على ما يقول البلاذري (1) « ان متمم بن نويرة دخل على عمر ابن الخطاب (2) فقال له عمر : ما بلغ وجدك على اخيك مالك .

قال : بكيته حولا حتى اسعدت عيني الذاهبة (3) عيني الصحيحة ، وما رأيت نارا

(1) فتوح البلدان 107 ، 108 .

(2) اثناء خلافته حيث انشده مرثيته المشهورة التي يقول فيها :

وكنا كندمـائي جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا
فلما تـفرقنا كأني ومالكا * لطول اجـتماع لم نبت ليلة معا

(3) اسعدت عيني الذاهبة : الاسعاد لايكون الا في البكاء ـ قاله في المقاييس ، مادة « سعد » 3 / 75 طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة . « مصححه »

الا كدت انقطع لها اسفا عليه ، لانه كان يوقد ناره الى الصبح ، مخافة ان يأتيه ضعيف فلا يعرف مكانه » .

لابد ان القارىء قد لاحظ معنا ، في رواية ابن الاثير ، جملة مخالفات قام بها خالد بن الوليد :

1 ـ فقد سار ، كما ذكرنا ، الى قتال مالك دون ان يتلقى بذلك امرا من الخليفة .

2 ـ اهمل المبدأ العام الذي وضعه ابو بكر لمعالجة مشكلة المسلمين الذين اتهموا بالامتناع عن دفع الزكاة ـ ذلك المبدأ الذي يتلخص ، كما ذكرنا ، بأن يؤذن في وقت الصلاة مؤذن من جيش المسلمين ، فان اذن المتهمون بالامتناع عن دفع الزكاة فلا يجوز قتالهم ابتداء . ثم يسألون عن امر الزكاة . فان اقروا ـ اي اعترفوا بوجوبها ـ حرمت على خالد وصحبه دماؤهم واموالهم .

اي ان الخليفة لم يشترط اخذ الزكاة من القوم وانما اشترط اقرارهم بها . فاذا اقروا بذلك ، صانوا ارواحهم واموالهم من عبث العابثين ،

وقد شهد ابو قتادة كما ذكرنا بأن اصحاب مالك بن نويرة قد اذنوا واقاموا وصلوا ـ اي انهم ذهبوا الى ابعد من مجرد الاذان الذي جعله الخليفة كافيا لتحريم قتالهم .

3 ـ ان خالدا امر بقتلهم غدرا بذلك الشكل الشنيع فأدفأهم ـ على لغة كنانة ـ (1) وكان باستطاعته وقد اصبحوا في اسره ، وتحت رحمته ان يرسلهم الخليفة بعد ان يتأكد من خروجهم على مبادىء الاسلام ، واصرارهم على ذلك الخروج ليفعل الخليفة بهم ما يشاء .

4 ـ وتزوج خالد ام تميم امرأة مالك في الوقت الذي قتل فيها زوجها ـ وفي هذا ما فيه من خروج على مبادىء الدين الحنيف وتدن عن المستويات الخلقية الرفيعة .

(1) مما لاشك فيه ان خالدا قصد بعبارة « ادفئوا اسراكم » قتلهم ، لانه حبسهم « عند ضرار بن الازور ... وكان كنانيا » . ابن خلدون في « كتاب العبر » 2 / 278 .

على اننا اذا نظرنا الى مأساة مالك ـ من زاوية اخرى ـ امكننا ان نلاحظ فيها الامور التالية :

(أ) لقد تردد امر الزكاة على مالك كما يقول ابن الاثير .

والتردد غير الامتناع ، لانه يتضمن التريث والاحجام وهي فترة وسطى بين الامتناع والانصياع . فاذا حصل الامتناع ، فانه ـ مع ذلك ـ لايجوز قتاله برأينا ، الا اذا كان الامتناع مشروطا لا مطلقا ـ اي ان يكون حصوله نتيجة للانتقاض على العقيدة الاسلامية .

ومما يؤيد وجاهة ما ذهب اليه ابن الاثير : ان مالكا الذي كان واليا على صدقات قومه بني يربوع من قبل النبي ، لما بلغته وفاة الرسول امسك عن اخذ الصدقة من قومه وقال لهم : تربصوا بها حتى يقوم قائم بعد النبي وننظر ما يكون من امره ، وقد صرح بذلك في شعر :

وقال رجـال : سدد اليوم مالك * وقـال رجال : مالك لم يسدد
فان قـام بـالامر المجدد قائم * اطعنا وقلنا : الدين دين محمد

فصرح مالك اذن انه استبقى الصدقة في ايدي قومه رفقا بهم ، وتقربا اليهم ، الى ان يقوم بالامر من يدفع له ذلك » (1) .

(ب) لقد تجاوز ابو بكر عن خالد ـ رغم اصرار عمر على ضرورة معاقبته ـ بدافع الرأفة به والشفقة عليه ، ولكن ذلك التجاوز قد حصل على حساب اقامة الحدود الدينية على ابن الوليد .

فقد اخطأ خالد باعتراف ابي بكر ، واخطأ خالد واقر بخطئه واعتذر عنه .

ولاندري ايجوز الصفح عن المجرم اذا ندم واعتذر ؟

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 184 .

وهل يجوز الاجتهاد في معرض النص ؟

ولعل هذه الحادثة وامثالها هي التي جعلت عليا يمتنع عن الزام نفسه بالسير وفق سيرة الشيخين حين عرض عليه ذلك عبد الرحمن بن عوف اثناء الشورى .

(ج) ومما يؤيد عدم قناعة ابي بكر ببراءة خالد انه امر برد السبي وودى مالكا من بيت المال عندما قدم عليه متمم بن نويرة يطالبه بدم اخيه ويسأله ان يرد عليهم سبيهم . على اننا لانعلم فيما اذا جاز لابي بكر من الناحية الدينية ان يدفع من بيت مال المسلمين تعويضا عن جريمة شخصية ارتكبها ابن الوليد !!

اما كيفية وقوع مالك وبعض صحبه اسرى بيد خالد بن الوليد ، وما جرى لهم بعد الاسر ، وموقف عم من ذلك ، فقد لخصه احد الرواة (1) بقوله :

« ان السرية التي بعث بها خالدا لما غشيت القوم تحت الليل راعوهم ، فأخذ القوم السلاح .

فقال اصحاب خالد : نحن المسلمون .

فقال اصحاب مالك : ونحن المسلمون . فقال اصحاب خالد : مابال السلاح معكم !! فلما وضعوا السلاح ربطوا اسارى ، فأتوا بهم خالدا ، فحدث ابو قتادة خالد بن الوليد : ان القوم نادوا بالاسلام ، وان لهم امانا .

فلم يلتفت خالد الى قوله ، وامر بقتلهم وتقسيم سبيهم .

وحلف ابو قتادة ان لايسير تحت لواء خالد في جيش ابدا . وركب فرسه شاذا الى ابي بكر ، فأخبره الخبر ، وقال : اني نهيت خالدا عن قتل مالك فلم يقبل قولي ، واخذ بشهادة الاعراب الذين غرضهم الغنائم ، وان عمر لما سمع ذلك تكلم فيه عند ابي بكر فاكثر ، وقال :

ان القصاص وجب عليه .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 184 الطبعة الاولى .

فلما دخل خالد المسجد قام اليه عمر ... وقال : ياعدو نفسه عدوت على امرىء مسلم فقتلته ، ونزوت على امرأته ... والله لنرجمنك بأحجارك .

وقد روى ايضا ان عمر لما ولى جمع من عشيرة مالك بن نويرة من وجد منهم واسترجع ما وجد عند المسلمين من اموالهم واولادهم ونسائهم ، فرد ذلك عليهم جميعا .

وقيل : انه ارتجع بعض نسائهم من نواحي دمشق وبعضهن حوامل فردهن على ازواجهن ، فالامر ظاهر في خطأ خالد ، وخطأ من تجاوز عنه » .

وكانت حجة مالك واصحابه في تأجيل دفع الزكاة على ما يحدثنا بعض الرواة (1) انهم فسروا الاية التي وردت في سورة التوبة : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » (2) .

بأنها تتضمن ضرورة صلاة النبي عليهم صلاة تكون سكنا لهم ، ليأخذ صدقة من اموالهم يزكيهم بها ـ وتلك الصفات ، برأيهم ، لاتتحقق في غير النبي ، لان غير النبي ـ بنظرهم ـ لايطهر الناس ، ولايزكيهم بأخذ الصدقة منهم ، ولاتكون صلاته سكنا لهم ـ اي انهم بعبارة اخرى ، ترددوا في اعطاء الزكاة الى غير النبي الى ان يثبت لهم وجود من يمثله ، وهو امر دون شك ، لا يعنى عدم اعترافهم بالزكاة ـ كأساس من اسس الدين ـ لانهم لم يجحدوا وجوبها ، ولكنهم قالوا :

انه وجوب مشروط . فتأولوا ، وربما اخطأوا ، كما تأول خالد فأخطأ ـ برأي ابي بكر .

واذا كان ابو بكر قد تجاوز عن خالد لانه تأول الخطأ ، افلا يجوز ان يقال عن اولئك ، على اسوأ الفروض : انهم تأولوا فأخطأوا !!

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 185 : الطبعة الاولى بمصر .

(2) التوبة : 103 .

يتضح من كل ما ذكرنا ان خالد بن الوليد واصحابه قد غرروا بضحاياهم وخدعوهم تحت ستار الدين ، فجردوهم عن السلاح اولا وقتلوهم ـ بعد ذلك ـ على الشكل الذي ذكرناه ـ ويلوح للباحث في شهادة ابي قتادة ان خالدا ـ لمرض في نفسه ـ ربما كان له صلة بأم تميم زوج مالك ، قد اخذ بشهادة الاعراب الذين غرضهم الغنائم والسلب والنهب ، وهي امور ابعد ما تكون عن جوهر الدين .

وقد وصفهم الله في كتابه بالغلظة والنفاق .

هذا الى المؤرخين كما سلف ان ذكرناها :

لم يؤيدوا خروج مالك وصحبه على مبادىء الدين ، او منعهم الزكاة او جحودهم وجوبها ، فهم اذن لا يستحقون القتل اطلاقا ، فكيف به وقد وقع بذلك الشكل من الغدر !!

ان الشيء الذي كانوا بحاجة اليه هو التنبيه والارشاد ، هذا اذا كانوا مخطئين في تفسير الاية التي ذكرنا في قضية الزكاة .

اما مالك نفسه فقد كان مسلما ، بشهادة عمر بن الخطاب ؛

وان خالدا بشهادة عمر كذلك ؛ قد اعتدى عليه ونزى على زوجه .

وهناك امر آخر لابد من ذكره في هذه المناسبة لتعلقه بمبدأ عام يتصل بموضوع المتهمين بالامتناع عن دفع الزكاة ، لا بموضوع مالك بن نويرة حسب ما ذكره البخاري حين قال (1) :

« حدثنا يحيى بن بكير ؛ حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب ، اخبرني عبيد الله ابن عتبة ان ابا هريرة قال : لما توفى النبي واستخلف ابو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر :

يا ابا بكر كيف تقاتل الناس . وقد قال رسول الله امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله ؛ فمن قال ذلك فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله » . وهناك امور اخرى اقترفها خالد بن الوليد لا تقل شناعة عما

---

(1) صحيح البخاري 8 / 50 طبعة مصر .

ذكرنا ـ منها : اغتياله سعد بن عبادة ـ وهو في محل اقامته في الشام ـ في اواخر خلافة ابي بكر ، او مساهمته بذلك الاغتيال .

ومنها ما رواه الطبري (1) حين قال :

« حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق قال : حدثني بعض اهل العلم عن رجل من جزيمة قال : لما امرنا خالد بوضع السلاح قال رجل منا ـ يقال له جحدم : ويلكم يا بني جذيمة .

ما بعد وضع السلاح الا الاسار ثم ما بعد الاسار الا ضرب الاعناق .

والله لا اضع سلاحي ابدا . قال : فأخذه رجال من قومه ، فقالوا : يا جحدم ؛ اتريد ان تسفك دماءنا ! ان الناس قد اسلموا .. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول خالد ؛ فلما وضعوه امر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف ، فقتل منهم من قتل .

فلما انتهى الخبر الى رسول الله رفع يديه الى السماء وقال : اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد . ثم دعا علي بن ابي طالب ، فقال : ياعلي اخرج الى هؤلاء القوم فانظر في امرهم ، واجعل امر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي ومعه مال قد بعثه رسول الله به ، فودى لهم الدماء وما اصيب من الاموال .

حتى اذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . فقال لهم على حين فرغ منهم : ابقى لكم دم او مال لم يرد ؟ قالوا : لا ، قال :

فاني اعطيكم هذا البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله مما لايعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع الى رسول الله فأخبره الخبر . فقال : اصبت واحسنت » .

فاذا كان هذا عمل خالد في زمن النبي ، فكيف به وقد انتقل الرسول الى الرفيق الاعلى !!

---

(1) « تاريخ الامم والملوك » 3 / 124 .

ومع ذلك كله ، فقد تجاوز عنه ابو بكر ، لانه تأول فأخطأ « على حد تعبيره » فاختلفت سيرة ابي بكر ، في هذه القضية الخطيرة ، عن سيرة عمر الذي عزل خالدا . فقد كان اول كتاب كتبه عمر ـ على ما يقول ابن الاثير (1) ـ موجها « الى ابي عبيدة ابن الجراح بتولية جند خالد ، وبعزل خالد ، لانه كان عليه ساخطا في خلافة ابي بكر كلها ، لوقيعته بابن نويرة ... وقال عمر : لا يلي خالد لي عملا ابدا .

وكتب الى ابي عبيدة .. ان انزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله » .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول :

ان ليس هناك شيء يصح ان يدعى « سيرة الشيخين » من حيث التوافق التام في جميع التصرفات العامة الدينية والزمنية ـ ولعل ذلك احد الاسباب التي ادت بالامام ـ حين عرض عليه ابن عوف الخلافة وقت الشورى ـ الى عدم الموافقة على الشرط الثالث « سيرة الشيخين » . وعلي بموقفه هذا ، قد استبعد « سيرة الشيخين » من ان تصبح بحد ذاتها سنة تتبع ، لعدم وجود ما يبرر اتباعها ـ من الناحية الدينية ـ ما دام القرآن وسنة الرسول هما دستور الاسلام بنظره .

وهناك امر آخر لابد من ذكره في هذه المناسبة ، هو ان جواب الامام ، بالصيغة التي ورد فيها ، كان يدل ـ دلالة قاطعة وصريحة ـ على التيهؤ لتحمل المسئولية ، وعدم نثر الوعود التي لا يمكن الالتزام بها اثناء تسلم المنصب الخطير .

فعلي لا يريد ان يلزم نفسه مقدما بشيء يستحيل عليه ان يعمل وفق مستلزماته بعد تسلمه الخلافة للاسباب التي ذكرناها . ولعل الشيء الذي يبدو غريبا ـ في امر الشورى ـ هو قبول علي الاشتراك فيها مع علمه بِأفضليته واحقيته بالخلافة . غير ان ذلك الاستغراب يزول عندما نتذكر ان عليا صرح بأنه يدخل الشورى ،

---

(1) الكامل في التاريخ 3 / 293 .

لان ابن الخطاب قد اهله الان للخلافة « وكان من قبل يقول : ان النبوة والخلافة في بيت واحد لاتجتمعان » (1) .

اما موقفه من شرط ابن عوف فأمر كان متوقعا ـ ذلك ، لان الامام كان على يقين من ان كلا من الشيخين قد سار في حدود اجتهاده الشخصي ، وانه من غير الممكن ان يلتزم هو بالكتاب والسنة وبسيرة الشيخين ـ وتتجلى روعة موقفه هذا اذا ما تذكرنا موقف زميله عثمان الذي كان ينعم بالاجابة لابن عوف حتى كسب الخلافة ، ولكنه لم يسر ـ كما سنرى ـ على الكتاب والسنة ، بله سيرة الشيخين ؟؟

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود : « الامام علي بن ابي طالب » 1 / 28 .

حديث السقيفة

ج ـ عثمان بن عفان

« فقام ثالوث القوم ، وقام بنو امية يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع .. إلى أن انتكث فتله ، وأجهز عليه عمله ، وكبت به بطنته ... فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ ، ينثالون علي من جانب حتى لقد وطئ الحسنان ، وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالامر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون » (1) .

إرتقى عثمان بن عفان منبر النبي بعد وفاة عمر وبالشكل الذي وصفناه في قصة

---

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 1 / 50 ـ 67 ، الخضم : اكل بكل الفم ، وضده القضم وهو : أكل بأطراف الاسنان ـ وقيل : الخضم اكل الشيء الرطب ، والقضم أكل الشيء اليابس ـ والمراد ـ على التفسيرين ـ لا يختلف ، وهو : انهم على قدم عظيمة من التهم وشدة الاكل وامتلاء الافواه . قال أبو ذر عن بني أمية : يخضمون ونقضم .

وانتكث فتله : انتقض ـ واجهز عليه عمله : ثم قتله ـ وكبت به بطنته ، كبا الجواد : إذا سقط بوجهه ، والبطنة . الاسراف في الشبع ـ وثالث القوم عثمان ... والعطفان . الجانبان من المنكب إلى الورك ... والمعنى . خدش جانباي ، لشدة الاحتكاك منهم والازدحام ... وعرف الضبع ثخين ، ويضرب به المثل في الازدحام ـ وينثالون . يتتابعون .. وكربيضة الغنم . يصف شدة ازدحامهم حوله ، وجثومهم بين يديه .. فأما طائفة الناكثين . فهم أصحاب الجمل ـ والقاسطين ، أصحاب صفين . والمارقين . أصحاب النهروان .

« الشورى » . واول عمل قام به الخليفة الجديد هو : تعيين ذويه واقربائه من الامويين وآل ابي معيط مستشارين ، وامراء على الامصار ، وبخاصة اولئك الذين كانت لهم إو لآبائهم سيرة غليظة معروفة في محاربة الاسلام ونبيه ، الامر الذي اورثهم احقادا ـ من الجاهلية ـ على الرسول واهل بيته وتعاليمه ، زرعها امية بن عبد شمس ونجله حرب ، وتعهدها من بعدهما : ابو سفيان ، وزوجه هند بنت عقبة ، ونجلهما معاوية الذي حارب النبي في بدر مع ابيه فهرب بعد ان قتل اخ له ، واسر آخر كما سنرى .

وقد ادى اعتماد عثمان على اولئك النفر ـ وعلى مروان بن الحكم ـ الى تقويض دعائم الخلافة الاسلامية ، وطوح بحياة عثمان وعلى مروان بن الحكم ـ الى تقويض الخلافة الاسلامية ، وطوح بحياة عثمان وعلي من بعده ، وبالتالي الى اندحار مبادىء العدالة الاجتماعية التي تبناها الاسلام ، واراد الرسول الكريم بثها بين الناس على اختلاف اجناسهم ومواقعهم الجغرافية .

وقد زرعت تصرفات الامويين ـ الذين اعتمد عليهم عثمان في تدوير شئون المسلمين ، كما سنرى ، فأصبح الحكام ـ بعد مصرع الخليفة الثالث كما سنرى ، بذور الفسلد والتفسخ في الخلق العربي عند الحكام والمحكومين على السواء ، فأصبح الحكام ـ بعد مصرع الخليفة الثالث كما سنرى ـ يستعملون شتى اساليب الغدر والمواربة ، والكذب ، والدس ـ واضرابها من الرذائل السياسية والخلقية ـ لكسب ولاء الجماهير لحكمهم الفاسد من جهة ، وللايقاع بخصومهم من جهة اخرى . والف المحكومون ـ الا ما ندر ـ هذه التصرفات الملتوية ، مع توالي الايام ، واستحسنوها وكيفوا سلوكهم وفقا لها .

وبما اننا لانؤرخ ـ في هذه الدراسة ـ اثر الامويين (1) في الخلق العربي والاسلامي ، وانما نحن بصدد البحث في الدور الذي لعبوه في خلافة عثمان ، فسوف

---

(1) ربما ساعدتنا الظروف في المستقبل فقمنا بدراسة ذلك بشيء من التفصيل ، راجع الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام ـ المؤلف .

نحصر بحثنا في هذه النقطة المعينة ، ولكي تفهم ذلك الاثر على الوجه الاكمل نرى لزاما علينا ان نستعرض مواقفهم من الاسلام في عهد الرسول :

لقد الب الامويون كفار قريش على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ـ فوقعت بدر ـ وقتل منهم حنظلة بن ابي سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس .

والعاص بن سعيد بن العاص بن امية بن عبد شمس ، وعبيدة بن سعيد بن العاص ابن امية بن عبد شمس .

والوليد بن عقبة بن ربيعة بن عبد شمس « صهره اخو هند زوج ابي سفيان » وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وعقبة بن ابي معيط « والد الوليد اخي عثمان لامه »

واسر من الامويين يوم بدر ابو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ،

والحرث بن وجزة بن ابي عمر بن امية بن عبد شمس .

وكان عمرو بن ابي سفيان ـ زوج بنت عقبة بن ابي معيط ـ من اسرى بدر ـ كما ذكرنا ـ فاقترح بعض المقربين الى ابي سفيان ان يفدى عمرواً ؟ فأجاب : « ايجمع عليّ مالي ودمي ؟ قتلوا حنظلة وافدى عمروا !! دعوه في ايديهم .. وبينما هو ـ اي عمرو ـ كذلك محبوس في المدينة اذ خرج سعد بن النعمان بن اكال اخو بني عمرو بن عوف ... معتمرا ... وكان شيخا مسلما ... فعدا (2) عليه ابو سفيان بمكة فحبسه بابنه عمرو ، ثم قال مفتخرا :

ارهط ابن اكال اجيبوا دعـــاءه * تعاقدتموا لاتسلموا السيـد الكهلا

فان بني عمرو لئـــام اذلــة * لئن لم يفكوا عن اسيرهم الكبلا (1)

وقالت هند بنت عتبة ـ زوج ابي سفيان ، وام معاوية ـ تبكي اباها يوم بدر :

---

(1) على الرغم مما بين الطرفين من عهد بعدم التعرض للحجيج او المعتمرين الا بخير .

(2) ابن هشام « سيرة النبي محمد » 2 / 294 .

يريـــب علينا دهرنا فيسوؤنـــا * ويـــأبى فما نـأتي بشيء نغـالبه

فـأبلـغ ابا سفيان عنـــي مالكا * فـان الـقه يومـا فسوف اعاتبه

فقد كان حرب يسعـر الحرب انه * لكل امرىء في الناس مولى يطالبه (1)

وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول ان الامويين قد اصيبوا بنكسة مريعة في بدر ، فتحركت حفائظهم ، واثيرت ضغائنهم القديمة ، واحقادهم الجديدة ، فالبوا من جديد كفار قريش ، والبهم الكفار ، على حرب النبي .

وكان ابو سفيان « رأس المؤلبين والحاقدين » قد هيا كفار قريش ـ وهيئوه ـ لاعلان حرب جديدة على النبي !! ؟ وتجهز الناس وارسلوا اربعة نفر منهم عمرو بن العاص .. فساروا في العرب يستنفرونهم .

وكان ابو سفيان قائد الناس ، فخرج بزوجه هند .. وخرج غيرهم بنسائهم .. الحرث بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد اخت خالد ... وعمرو بن العاص بريطة بنت منبه .. وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين » (2)

فخرجت قريش « بحدها واحابيشها ومن معها من بني كنانة واهل تهامة وخروجوا معهم بالظعن إلتماس الحفيظة ، ولئلا يفروا .

فخرج ابو سفيان بن حرب قائد الناس ومعه هند .. وكانت هند كلما مرت بوحشي ـ او مر بها ـ قالت ايه ابا دسمة ! استف واشتف .

واقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين .. واقبل ابو سفيان يحمل اللات والعزى ، (3) وقامت هند في النسوة اللاتي معها واخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم وانشدت هند :

---

(1) ابن هشام : سيرة النبي محمد 2 / 414 ، 415 .

(2) ابن الاثير : الكامل في التاريخ 2 / 103 .

(3) الطبري : تاريخ الامم والملوك 3 / 10 ، 14 .

ويهاً بنـي عبـد الـدار * ويـهـاً حمـاة الادبار
ضربـــا بكل بتـار
ان تـقبلـوا نعانـــق * ونفـرش النمـــارق
او تـدبـــروا نفـارق * فراق غيـر وامـق (1)

وانشد عمرو بن العاص يوم احد يصف خروجهم لقتال النبي :

خرجنا من الفيفـا عليهم كأننا * مع الصبح رضوى الحبيك المنطق
فما راعهم بالشر الا نجـــاءة * كراديس خيـل في الازقة تمرق(2)

ووقفت هند والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من اصحاب الرسول .
« يجدعن الاذان والانف حتى اتخذت هند من آذان الرجال خدما » « جمع خدمة وهي الخلخال » وقلائد .
وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها .. ثم علت صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحـن جزيناكم بيوم بـدر * والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عـن عتبة لي صبر * ولا اخى وعمـه وبكـر (3)

وكان الحليس بن زبان « على مايروى ابن هشام في سيرة النبي محمد 2 / 44 ، 45 » قد « مر بأبي سفيان وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب ـ وهو جثة هامدة ـ ويقول : ذق عقق .
ولما انصرف ابو سفيان ومن معه نادى : ان موعدكم بدرا للعام القادم » ـ ثم التفت الى زوجه هند وانشد مفتخرا (4) :

اباك واخوانا له قد تتابعوا * وحق لهم من عبرة بنصيب

(1) ابن هشام « سيرة النبي محمد » 3 / 12 ، 13 .
(2) المصدر نفسه 3 / 11 .
(3) المصدر نفسه 3 / 41 .
(4) المصدر نفسه 3 / 21 ، 22 .

وسلى الذي قد كان في النفس انني * قتلت من النجار كل نجيـب
ومن هاشم قرما كريما ومصعبا * وكان لدى الهيجاء غير هيـوب

وكانت هند ـ حين انصرف المشركون منتصرين من احد ـ تنشد :

رجعت وفي نفسي بلابل جمـه * وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي
ولكنني قد نلت شيئا ولـم يكن * كما كنت اجو في مسيري ومركبي (2)

اما اسلام هند ـ في الظاهر ـ فقد حصل بالشكل التالي :

« لما فتح النبي مكة حضرت اليه هند مع نساء مكة ليبايعنه .

فلما تقدمت هند لمبايعته اشترط شروط الاسلام عليها .. فأجابته بأجوبة قوية

فما قاله لها : تبايعينني على ان لاتقتلي اولادك ؟! فقالت هند :

اما نحن فقد ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا يوم بدر .. فقال : وعلى الا تزنين ! ؟ فقالت هند : وهل تزني الحرة ؟ قالوا : فالتفت رسول الله الى العباس وتبسم » (3)

يتضح مما ذكرنا جانب من جوانب تعبير الامويين عن مقتهم للدين الحنيف ولصاحبه ، فقد شنوها ـ كما رأينا ـ حربا شعواء لاهوادة فيها على النبي ، غير انهم اندحروا في بدر ـ كما رأينا ـ وكادوا ينالون من النبي في موقعة احد .

فقتلو عمه حمزة ومثلوا به على شكل من الوضاعة والبشاعة قل ان يعثر المرء على مثلهما في التاريخ . ولولا انه خيل اليهم ان الرسول قد قتل لما رجعوا من المعركة .

غير انهم سرعان ما اجمعوا امرهم على الرجوع الى النبي في احد حينما بلغهم انه نجا من سيوفهم الظالمة فلقى « معبد الخزاعي ، ابا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء .

---

(1) القرم : الفحل الكريم من الابل ، والمصعب . الفحل من الابل ـ كناية عن حمزة ابن عبد المطلب .

(2) ابن هشام (سيرة النبي محمد) 3 / 159 .

(3) ابن الطقطقي الفخري في « الاداب السلطانية » ص 76 ، 77 لعل ابتسامة النبي تشير الى حادثة الزنى التي رمى بها الفاكهة بن المغيرة زوجه هند ، فطلقها فتزوجها ابو سفيان .

وقد اجمعوا الرجعة الى رسول الله واصحابه ، وقالوا :

اصبنا جل اصحابه وقادتهم واشرافهم ثم رجعنا قبل ان نستأصلهم ، لنكرّنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم ـ فلما رأى ابو سفيان معبدا قال : ماوراءك يا معبد ؟

قال : محمد ، قد مرج في اصحاب يطلبكم في جمع لم ار مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ... قال : فوالله لقد اجمعنا الكر عليهم لنستأصل بقيتهم .

قال : فاني انهاك عن ذلك ... قال : فثنى ذلك ابا سفيان ومن معه » (1) .

ولكن اخفاق ابي سفيان « في مؤامرته المسلحة لوَأدِ الاسلام والمسلمين في احد » لم يثنه عن مواصلة الكفاح المرير لاثارة وقائع اخرى ضد النبي .

وقد نذر ابو سفيان « ان لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (2) في كل فرصة ملائمة للاجهاز عليه ، وعلى الدين الحنيف .

فألب الاحزاب في حرب الخندق ... ومابعدها ... ولم يعلن اسلامه ـ في الظاهر ـ الا حين رأى ان ذلك اجدى من السيف لتحطيم الاسلام .

وهكذا كان ابو سفيان يثيرها حروبا متصلة الحلقات للايقاع بالنبي وبدينه وبصحبه ، فأثار حرب بدر ، وأحد ، والاحزاب في الخندق ، وتآمر مع اليهود للوصول الى تحقيق غرضه الدنيء .

لقد مر بنا طرف من حوادث ايذاء قريش ـ وفي مقدمتهم بنو امية من النساء والرجال ـ للنبي ، وللمسلمين ، وللعقيدة الاسلامية طوال مكوث النبي في مكة « وقد ظهر ذلك الايذاء بشكل فردي مبعثر احيانا ، وبشكل جماعي منظم احيانا اخرى .

وتفنن المشركون من الامويين خاصة في ابتداع الوسائل المختلفة لايذاء الرسول

---

(1) الطبري « تاريخ الامم والملوك » 3 / 28 ، 29 .

(2) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » 2 / 98 .

فبعثوا النضر بن الحرث وعقبة بن ابي معيط (1) الى احبار اليهود لتأليبهم على النبي وتسفيه رسالته ، وارسلوا عبد الله بن ابي ربيعة ، وعمرو بن العاص (2) الى الحبشة لاقناع النجاشي بطرد المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة ، تخلصا من ايذاء المشركين .

وقد نزل قرآن في ذم كثير من اولئك الذين بالغوا في الاعتداء على الرسول ، كأم جميل بنت حرب بن امية حمالة الحطب (3) .

وكان ذلك كله يجري بمكة طوال مكوث النبي فيها .

فلما هاجر النبي الى المدينة واصل كفار قريش ـ تحت زعامة الامويين من النساء والرجال ـ ايذاء الرسول ، هذه المرة عن طريق الحرب ، فامتشق (4) الامويون الحسام والبوا قريشا ، وحاربوا النبي في سلسلة من الحروب الفاشلة التي ذكرناها .

ولما رأى المشركون ـ من بني امية واتباعهم ـ فشلهم المتواصل لجأوا الى اتّباع اسلوب جديد للايقاع بالاسلام ـ وكان هذا الاسلوب ـ في واقعه ـ اكثر الاساليب ايجاعا للعقيدة الاسلامية .

فتقمص قادتهم الاسلام والتزموا ببعض مظاهره ليتمكنوا من اعلانها حربا شعواء على الدين من داخله ؛ بعد ان اعياهم امره في حربهم اياه من الخارج .

فأسلم ابو سفيان ـ قائدهم ـ في الظاهر يوم فتح مكة بعد ان لجأ الى العباس عم النبي مضطرا والتمسه ان يأخذه الى الرسول ، فلما اتى به العباس قال له رسوله الله : الم يأن لك ان تعلم ان لا اله الا الله ؟ فقال : بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك

والله لقد علمت لو كان معه اله غيره اغنى عنا ! فقال :

---

(1) ابن هشام : « سيرة النبي محمد » 1 / 320 .

(2) المصدر نفسه 1 / 357 - 360 .

(3) المصدر نفسه 1 / 376 - 378 .

(4) امتشقته : اقتطعته ، صحاح اللغة مادة « مشق »

ويحك الم يأن لك ان تعلم اني رسول الله ؟ قال : بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك !! اما هذه ففي النفس منها شيء .

فقال العباس : ويحك اسلم قبل ان يضرب عنقك ! فأسلم » (1) .

وقد حاول ابو سفيان ان يضبط اعصابه ـ التي نشأت على الكفر وتشربت ببغض الاسلام ـ فتظاهر بنبذ عبادة الاوثان والاعتراف بالدين الجديد .

ولكن ذلك لم يعصمه في مناسبات كثيرة من غمز الدين الجديد ، من ذلك ، مثلا : ما ذكره ابن هشام (2) حينما خاطب الحرث بن هشام ابا سفيان بعد فتح مكة بقوله : « اما والله لو اعلم ان محمداً نبي لاتبعته !! فقال ابو سفيان : لا اقول شيئا ، لو تكلمت لاخبرت عني الحصا ! » فلو كان ابو سفيان مسلما صحيح الاسلام لانبرى لتنفيذ زعم ذلك المشرك البغيض .

اما اقراره لرأي الحرث ـ ضمنيا ـ كما يبدو من عبارته فدليل قاطع على وثنيته .

ذلك ما يتصل بأبي سفيان ، اما ما يتصل بغيره من شيوخ الامويين ـ الذين اعتمد عليهم عثمان في تدوير شئون المسلمين ـ فمعروف لدى من لهم ادنى المام بالتاريخ الاسلامي في عهد الرسول ، فالحكم ـ ابو مروان وزير عثمان ـ قد خاض من فحش القول مع الرسول ما يندى من ذكره جبين المسلم ـ الامر الذي اضطر النبي الى نفيه من المدينة الى الطائف ، قال البلاذري (3) :

« حدثني محمد بن سعد الواقدي عن محمد بن عبد الله الزهري ، وحدثني عباس ابن هشام الكلبي عن ابيه عن جده ، ان الحكم بن العاص بن امية عم عثمان ابن عفان كان جارا للنبي في الجاهلية ، وكان اشد جيرانه اذى له في الاسلام . فكان يمر خلف النبي فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه ، واذا صلى قام خلفه فأشار بأصابعه ... واطلع على ذلك رسول الله ذات يوم في بعض حجر

---

(1) ابن خلدون « كتاب العبر » ... الخ 2 / 234 .

(2) سيرة النبي محمد 4 / 33 .

(3) انساب الاشراف 5 / 27 .

نسائه فعرفه وخرج اليه ... ثم قال : لا يساكني هو ولا ولده فغربهم جميعا الى الطائف ، فلما استخلف عثمان ادخلهم المدينة » .

وابن ابي سرح الذي اختبره النبي في كتابة الوحي فحرف وبدل في التنزيل ، فأهدر النبي دمه .

والوليد بن عقبة بن ابي معيط الذي نزل فيه قرآن يصفه بالنفاق في قضية بني المصطلق المعروفة ـ قال تعالى : « يا ايها الذين آمنو ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة (1) » .

وكان المسلمون في عهد الرسول « يسمون ابا سفيان وامثاله من الذين اسلموا بأخرة ، ومن الذين عفا النبي عنهم يوم الفتح بالطلقاء .

ومهما يقال عن معاوية فهو ابن ابي سفيان قائد المشركين ... وابن هند التي اغرت بحمزة حتى قتل ثم بقرت بطنه ولاكت كبده » (2) .

وقد ذكر الزبير بن بكار في الموفقيات « عن المغيرة بن شعبة قال : قال لي عمر يوما : يا مغيرة هل ابصرت بعينك العوراء منذ اصيبت ؟ قلت : لا .

قال : اما والله ليعورن بنو امية الاسلام كما اعورت عينك هذه ، ثم ليعمينه حتى لايدري اين يذهب ولا اين يجيء » (3) .

وذكرالبخاري في صحيحه 8 / 49 » « حدثنا خلاد بن يحيى ، حدثنا سفيان عن منصور ، والاعمش عن ابي واتل عن ابن مسعود قال : قال رجل يا رسول الله اتؤاخذنا بما عملنا في الجاهلية « قال : من احسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية .

ومن اساء في الاسلام اخذ بالاول والاخر » .

---

(1) الحجرات : 6 .

(2) الدكتور طه حسين : الفتنة الكبرى ، علي وبنوه 155 .

(3) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 115 .

لقد ظهر من تقريب عثمان للأمر بين خلافته وايثارهم ـ دون غيرهم ـ على سائر المسلمين اشكالا مختلفة : اوضحها الجانب المالي ، والجانب السياسي الاداري ـ وبقدر ما يتعلق الامر بالجانب المالي يمكننا ان نقول : ان عثمان اغدق العطايا على اقربائه من بيت مال المسلمين دون حساب ، من ذلك ، مثلا : ان عثمان قد منح مروان بن الحكم ـ زوج ابنته ام ابان ، كما منح ابنته عائشة ـ التي زوجها من الحرث بن الحكم اخى مروان ـ يوم العرس « مئتى الف من بيت المال ، سوى ما كان قد اقطعه من قطائع ، فلما اصبح الصباح جاءه زيد بن ارقم خازنه حزينا .. يرجو ان يقيله .

على ان هذه الواقعة لم تكن الا حلقة من حلقات سخاء عثمان .

وذات اليوم الاول لخلافته منح ابا سفيان ـ شيخ بني امية ـ مئة الف درهم (1) ،

واعطى عثمان كذلك « رجلا من ذوى قرابته مقدارا ضخما من بيت المال .

واستكثر عامله على بيت المال هذا المقدار فلم يخرجه ، فألح عثمان . فأبى الخازن . فلامه عثمان ... وقال : ما انت وذاك ؟ انما انت خازن ! قال له صاحب بيت المال : ما اراني خازنا لك ..

لقد كنت اراني خازنا للمسلمين ، ثم اقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبي وجلس في داره » (2) وتفصيل ذلك على ما رواه البلاذري « انساب الاشراف 5 / 58 ، 59 » انه : « كان على بيت مال عثمان عبد الله بن الارقم .. فاستسلف عثمان من بيت المال مئة الف درهم .

ثم قدم عليه عبد الله بن اسيد بن ابي العيص من مكة ، وناس معه غزاة ، فأمر لعبد الله بثلاثمائة الف درهم ؛ ولكل رجل من القوم بمئة الف درهم ـ وصك بذلك الى ابن الارقم فاستكثره ورد الصك له .

فقال عثمان : انما انت خازن لنا فما حملك على ما فعلت ؟ فقال ابن الارقم : كنت اراني خازنا للمسلمين ؛ وانما خازنك

غلامك والله لا الى لك بيت المال ابداً

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 2 / 20 ، 21 .

(2) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 94 .

وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر ..

وبعث عثمان الى عبد الله بن الارقم ثلاثمائة الف درهم فلم يقبلها » .

وقد استمر عثمان على هذا المنوال من ايثار بني عمومته والمقربين اليه من بيت المال على حساب المسلمين ، حتى تحدث الناس ذات يوم بأن عثمان اخذ من جوهر كان في بيت المال فخلى به بعض اهله فغضب الناس لذلك ، ولاموا عثمان فيه حتى اغضبوه ، فخطب ، فقال : لنأخذ حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت انوف اقوام ؟

فقال عمار بن ياسر : اشهد الله ان انفي اول راغم من ذلك .

فقال عثمان : أعلى يا ابن المتكأ تجترىء !! خذوه ؟ فأخذ .

ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشى عليه ، ثم اخرج محمولا حتى اتى به منزل ام سلمة زوج النبي ، وظل مغشيا عليه سائر النهار . ففاته الظهر والعصر والمغرب . فلما افاق توضأ وصلى وقال .

الحمد لله ، هذه ليست اول مرة اوذينا فيها في الله ، ويقال : ان ام سلمة ـ او عائشة ـ اخرجت شيئا من شعر النبي وثوبا من ثيابه ونعلا من نعاله وقالت :

هذا شعر النبي وثوبه ، ونعله لم يبل وانتم تعطلون سنته !! .

وضج الناس ، وخرج عثمان عن طوره حتى لا يدري مايقول » (1) .

واذا صحت الرواية المذكورة فان عثمان قد ارتكب خطئين في آن واحد : تبذير اموال المسلمين ، والاعتداء على رجل من خيرة الصحابة .

« ولسنا بحاجة الى ان نناقش في صحة ما جاءت به الرواية من ان عثمان اعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في افريقية .. ومن أنه اعطى الحكم عمه .

واعطى ابنه الحارث ثلثمائة الف .

---

(1) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى » عثمان بن عفان 167 ، والبلاذري « انساب الاشراف » 5 / 48 .

واعطى عبد الله بن خالد بن اسيد الاموي ثلثمائة الف .

واعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبدالله بن خالد مائة الف .

واعطى الزبير بن العوام ستمائة الف ، واعطى طلحة بن عبيد الله مائة الف .

واعطى سعيد بن العاص مائة الف ، وزوج ثلاثا او اربعا من بناته لنفر من قريش ، فأعطى كل واحد منهم مائة الف

دينار » (1) .

ويقول البلاذري في هذا الصدد (2) « حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن اسامة بن زيد بن اسلم ، عن نافع مولى الزبير عن عبد الله بن الزبير قال :

اغزانا عثمان سنة 27 افريقية ، فأصاب عبد الله بن سعيد بن ابي سرح غنائم جليلة . فأعطى عثمان مروان بن الحكم خمس الغنائم ...

وحدثني عباس بن هشان الكلبي عن ابيه .. عمن حدثه قال :

كان عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخا عثمان من الرضاعة ، وعامله على المغرب ، فغزا افريقية سنة 27 هـ فافتتحها فابتاع خمس الغنيمة بمئة الف او مئتى الف .

فكلم عثمان فوهبها له ، فأنكر الناس ذلك على عثمان ...

وحدثني ، محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر ، عن ام بكر عن ابيها قالت : قدمت ابل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن ابي العاص .

وحدثني محمد بن حاتم بن ميمون ، حدثنا الحجاج الاعور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان مما انكروا على عثمان انه ولى الحكم بن ابي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلثمائة الف درهم فوهبها له حين اتاه بها .. ولما اعطى عثمان مروان بن الحكم ما اعطاه .

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص 193 .

(2) انساب الاشراف 5 / 27 / 28 / 52 .

واعطى الحارث بن الحكم بن ابي العاص ثلثمائة الف درهم ..

واعطى زيد بن ثابت الانصاري مائة الف درهم جعل ابو ذر يتلو قول الله :

« والذين يكنزون الذهب ، (1) فرفع ذلك مروان بن الحكم الى عثمان ..

فأرسل الى ابي ذر نائلا مولاه : ان انته عما بلغني عنك فقال :

اينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك امر الله فوالله لسخط عثمان احب الي وخير لي من سخط الله » .

ولعل تصرف عثمان في بيت المال على الشكل الذي وصفناه ، وايقاعه بالصحابة الذين اعترضوا على ذلك ، يبدو بشكل اوضح مما ذكرناه اذا قارناه ـ حسب قاعدة : وبضدها تتميز الاشياء ـ بتصرف علي اثناء خلافته في بيت المال ـ وبموقفه ممن لامه على اتباعه الحق ، بله الباطل الذي هو اسمى من ان يهبط اليه .

« نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستسلف درهما اشترى به خبزا ، واحتاج الى الإدام فطلب من قنبر خادمهم ان يفتح لهم زقا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن .

فأخذ منها رطلا ، فلما طلبها علي ليقسمها ، قال : ياقنبر ، اظن انه حدث بهذا الزق حدث ! ، فأخبره ، فغضب ، وقال : عليّ بحسين . فقال له : ما حملك ان اخذت من قبل القسمة ؟ قال : ان لنا فيه حقا فاذا اعطينا رددناه ، قال :

وان كان لك حق فليس ان تنفتح بحقك قبل ان ينفتح المسلمون بحقوقهم .. ثم دفع ال قنبر درهما كان مصروا في

ردائه ، وقال :

اشتر به خير عسل تقدر عليه » (2) .

وذكر عقيل بن ابي طالب لمعاوية بن ابي سفيان عندما التحق به فارا من عدل الامام « اصابتني مخمصة شديدة . فجمعت صبياني وجئت عليا بهم ، والبؤس والضر

---

(1) التوبة : 34 .

(2) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 3 / 81 - 83 هذا النص مخالف لما عليه الشيعة الامامية « الناشر »

ظاهران عليهم ! فقال ائتني عشية لادفع اليك شيئا ، فجئته يقودني احد ولدي ، فأمره بالتنحي ، ثم قال : الا دونك ، فأهويت حريصا قد غلبني الجشع اظنها صرة فوضعت يدي عل حديدة تلتهب نارا ، فلما قبضتها نبذتها وخرت كما يخور الثور تحت يد جزار (1) .

والى هذه الحادثة يشير الامام في احدى خطبه :

« رأيت عقيلا وقد املق حتى استماحني من بركم صاعا . ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غبر الالوان من فقرهم ، عاودني مؤكدا وكرر على القول مرددا ، فأصغيت اليه سمعي ، فظن اني ابيعه ديني واتبع قياده مفارقا طريقي ، فأحميت له حديدة ، ثم ادنيتها من جسمه ليعتبر من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذي دنف من المها ..

فقلت له : ثكلتك الثواكل ياعقيل .. اتئن من حديدة احماها انسانها للعبه ، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه !! » (2) .

ويتجلى اروع مواقف الامام في ضبط النفس في معاملته للخوارج الذين هم على باطل ، من وجهة نظره على كل حال فلم نشهد له موقفا معهم ـ على باطلهم ـ يشبه موقف عثمان مع عمار ـ على حقه ـ يقول الدكتور طه حسين (3) .

« جاء عليا احد الخوارج ـ « وهو الحريث بن راشد السامي ـ فقال له : والله لا اطعت امرك ، ولا صليت خلفك .. فلم يغضب علي لذلك ، ولم يبطش به انما دعاه الى ان يناظره ويبين له وجه الحق لعله ان يثوب اليه ، فقال الحريث : اعود غدا ، فقبل منه على . » .

ولم يقف تمزيق عثمان لاموال المسلمين عند حد تفريقه اياها على الاصهار وذوي القرابة ؛ انما تعداه الى الاصدقاء والمقربين والاتباع .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » .

(2) المصدر نفسه 3 / 80 .

(3) « الفتنة الكبرى علي وبنوه » ص 125 .

فقد وصل عثمان « الزبير بن العوام بستمائة الف .

ووصل طلحة بمائة الف ونزل عن دين كان له عنده » (1) .

وبقدر ما يتعلق الامر بهذا الجانب من جوانب سياسة ابن عفان يمكننا ان نقول بنشوء هوة سحيقة بين المقربين اليه ـ من الاقرباء والاصهار والاصدقاء من جهة ـ وبين سائر المسلمين من جهة اخرى .

فبينما نجد اكثرية المسلمين تعيش على الطوى ـ ويحرم القسم الكبير منها حقه في بيت المال ـ نرى المقربين الى الخليفة ـ بالاضافة الى ذوي قرابته ـ الذين استأثروا بحصة الاسد من غنيمة اموال المسلمين ، يبلغ ترفهم وثراؤهم الى الاذقان .

ففي ايام عثمان على ما يروي المسعودي (2)

« اقتنى جماعة من اصحابه الضياع والدور ، منهم : الزبير بن العوام ، بني داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ـ وهو سنة 332 هـ اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ تنزلها التجار وارباب المال ..

وابتنى ايضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم ..

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الزبير الف فرس . والف امة ..

وكذلك طلحة بن عبيدالله التميمي ابتنى داره المشهورة في الكوفة .

وكان غلته من العراق كل يوم الف دينار ـ وقيل اكثر من الف .

وبناحية سراة اكثر مما ذكرنا ـ وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج .

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه الف فرس ، وله الف بعير وعشرة الاف من الغنم

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص 77 .

(2) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، 2 / 222 .

وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله اربعة وثمانين الفا » .

يتضح مما ذكرنا « ان السياسة المالية التي اصطنعها عثمان منذ ان نهض بالخلافة كانت كلها موضع نقمة وانكار من اكثر الذين عاصروه ومن اكثر الرواة والمؤرخين .

كان عثمان ـ قبل ان يلي الخلافة ـ كثير المال .

فلما تولى الخلافة شغلته عن التجارة .. ولم يكن له بد من ان ينفق على نفسه واهله وذوي قرابته بعد الخلافة كما كان ينفق قبلها ، فكان يرى فيما يظهر ان الخلافة يجب الا تغير من سيرته في المال شيئا ، فاذا لم يسعفه ماله الخاص وجب ان تسعفه الاموال العامة » (1) .

واذا استباح الخليفة لنفسه ان ينفتع ببيت المال لاغراضه الآنفة الذكر .

فان ذلك قد شجع عماله على السير في مال المسلمين سيرة امامهم ، فأعطوا واقرضوا والتوى بعضهم بالدين ، فاستقال عبد الله بن مسعود في الكوفة .

كما استقال عبد الله بن الارقم في المدينة .

واذا اطلق الامام يده واطلق العمال ايديهم في الاموال العامة على هذا النحو لم يمكن غريبا ان يحتاج الجند الى المال فلا يجدون ، وان اضطر الامام ان ينفق على الحرب من اموال الصدقة فيعرض نفسه لما تعرض اليه من الانكار ..

واذا اطلق يده في الاموال العامة على هذا النحو لم يكن غريبا ان تمتد هذه الايدي الى اموال الصدقة للانفاق على الحرب بل للعطاء وصلة الرحم .

كما يروى ان عثمان ارسل الحارث بن الحكم مصدقا على قضاعة . فلما جاء بصدقاتهم وهبها له ... على ان عثمان لم يقتصر على السائل من المال بل تجاوز الى الجامد ايضا .

فقد نقم الناس من عثمان انه كان يقطع القطائع الكثيرة في الامصار لبني امية .

---

(1) الدكتور طه حسين . « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص 190 .

وقد دافع اهل السنة والمعتزلة عن هذا الاقطاع بأن عثمان انما اقدم عليه استصلاحا لهذه الارض ..

ويرد الشيعة عليهم بأن عثمان نفسه لم يدافع عن نفسه هذا الدفاع ، وكان من الممكن ان يرد الشيعة ايضا بأن بني امية لم يكونوا اخصائين من دون قريش في استصلاح الارض » (1) .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول مع الدكتور طه حسين (2) « ان السياسة المالية لعثمان كانت تنتهي الى نتيجتين كلتاهما شر : الاولى انفاق الاموال العامة في غير حقها ..

والاخرى انشاء هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى التي تستجيب لطمع لاحد له ، فتتوسع في ملك الارض واستغلال الطبقة العاملة ، ثم ترى لنفسها من الامتياز ما ليس لها ، ثم تتنافس في التسلط » .

وقد حدث ذلك بالفعل واستفحل في خلافة الامام علي كما سنرى .

ذلك : ما يتعلق بأسلوب عثمان في صرف المال وبسياسته العامة في هذه الناحية .. اما ما يتعلق بسياسته الادارية فمن الممكن ان يقال عنه :

بأن عثمان كان يعتمد ـ بالدرجة الاولى ـ من حيث الولاة والمتنفذين ، على مروان بن الحكم ـ مستشاره ووزيره ـ وعلى ولاة آخرين من اصهاره وذوي قرابته ـ مر بنا ذكر اسمائهم ـ وقد اخذ هؤلاء الولاة القساة الفجرة ، بدورهم ـ كما سنرى .

يعبثون بشئون المسلمين والاسلام بشكل لم يألفه الناس من قبل .

وعثمان من ورائهم يسندهم ويختلق لهم المعاذير التبرير افعالهم الناشزة .

---

(1) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص 193 ، 194 .

(2) المصدر نفسه : عثمان بن عفان ص 195 .

وانكى من ذلك ان عثمان نفسه كان ـ على الرغم مما عرف فيه من وداعة ولين ـ على جانب كبير من القسوة في

معاملة اجلة الصحابة ، بله عامة الناس ..

وموقفه الغليظ من عبد الله بن مسعود ، وابي ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، معروف لدى الكثيرين .

والانكى من ذلك كله :

ان هؤلاء الرجال الصالحين ـ بشهادة الرسول ـ قد امتهنهم الخليفة واعتدى عليهم بالضرب المبرح والنفي والكلام الجارح ، دون ان يقوموا بعمل يستحقون عليه العقاب .

اللهم الا اذا اعتبرنا عتابهم لعثمان على بعض تصرفاته الناشزة شيئا يستحقون عليه العقاب . قال البلاذري (1) « حدثنا محمد بن عيسى بن سميع عن محمد بن ابي ذئب عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال :

ولما ولى عثمان كره ولايته نفر من اصحاب رسول الله .. وكان كثيرا ما يولى من بني امية من لم يكن له مع النبي صحبة . وكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم فلما كان في الست الاواخر استأثر ببني عمه فولاهم .

وولى عبد الله بن سعد بن ابي سرح مصر فمكث فيها سنين ، فجاءه اهل مصر يشكونه ويتظلمون منه ... فكتب اليه كتابا يتهدده فيه ، فأبى ان ينزع عما نهاه عثمان عنه .

وضرب بعض من كان شكاه الى عثمان من اهل مصر حتى قتله .

فخرج من اهل مصر وفد الى المدينة فنزلوا المسجد وشكوا ما صنع بهم ابن ابي سرح في مواقيت الصلاة الى اصحاب محمد ، فقام طلحة الى عثمان فكلمه بكلام شديد .

وارسلت اليه عائشة تسأله ان ينصفهم من عامله » .

---

(1) انساب الاشراف 5 / 25 - 26 .

(2) المصدر نفسه 5 / 49 .

واخف نفسك منهم اخفاء القنفذ رأسه عند لمس الاكف . وامتهن نفسك امتهان من ييأس القوم من نصره وانتصاره ... وانفل الحجاز فاني منفل الشام ..

وكتب الى سعيد بن العاص .. يابني امية عما قليل تسألون ادنى العيش من ابعد المسافة فينكركم من كان بكم عارفا ويصد عنكم من كان لكم واصلا ، متفرقين في الشعاب تتمنون لمظة المعاش . ان امير المؤمنين عتب عليه فيكم وقتل في سبيلكم . ففيم القعود عن نصرته والطلب بدمه ؟!

وانتم بنو ابيه ذوو رحمة واقربوه وطلاب ثأره اصبحتم مستمسكين بشظف معاش زهيد عما قليل ينزع منكم عند التخاذل .. وكتب الى عبد الله بن عامر ..

كأني بكم يابني امية شعار يرك كالاوراك تقودها الحدأة .. فثب الآن قبل أن يستشرى الفساد ..

واجعل اكبر عدتك الحذر ، وأحد سلاحك التحريض ، واغضض عن العوراء وسامح اللجوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الاشوس ، وقو عزم المريد ..

وكتب الى الوليد به عقبة .. فلو قد استتب هذا الأمر لمريده ألفيت كشريد النعام يفزع من ظل الطائر . وعن قليل تشرب الرنق وتستشعر الخوف .

وكتب الى يعلى بن امية .. فكان اعظم ما نقموا على عثمان وعابوه عليه ولايتك على اليمن وطول مدتك عليها .. حتى ذبحوه ذبح النطيحة .. وهو صائم معانق المصحف .. على غير جرم .. وأنت تعلم ان بيعته في اعناقنا وطلب ثأره لازم لنا .. فشمر لدخول العراق .

فأما الشام فقد كفيتك أهلها ، واحكمت امرها .

وقد كتبت الى طلحة بن عبيد الله ان يلقاك بمكة حتى يجتمع رأيكما على اظهار الدعوة والطلب بدم عثمان المظلوم .

وكتبت الى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق ..

واعلم يا ابن امية ان القوم قاصدوك بادىء بدء لاستنزاف ما حوته يداك من المال .

وكتب اليه مروان جوابا على كتابه .. زعيم العشيرة وحامي الذمار .. أنا على صحة نيتي ، وقوة عزيمتي ، وتحريك الرحم لي ، وغليان الدم مني غير سابقك يقول ولا متقدمك بفعل .

وأنت ابن حرب طلاب التراث وابى الضين . وكتابي اليك .

وانا كحرباء السبسب الهجير يرقب عين الغزالة ، وكالسبع المفلت من الشرك يفرق من صوت نفسه .

منتظرا لما تصح به عزيمتك ، ويرد به أمرك فيكون العمل به والمحتذى عليه ..

وكتب اليه عبد الله بن عامر .. فان امير المؤمنين كان الجناح الحاضنة تأوى اليها فراخها . فلما اقصده للسهم صرنا

كالنعام الشارد .. والذي اخبرك به ان الناس في هذا الامر تسعة لك وواحد عليك .

ووالله للموت في طلب العز احسن من الحياة في الذلة . وانت ابن حرب فتى الحروب ، ونصار بني عبد شمس ، والهمم بك منوطة وانت منهضها .. ولنعم مؤدب العشيرة انت ، وانا لنرجوك بعد عثمان .

وها انا اتوقع ما يكون منك لامتثله واعمل عليه .

وكتب الوليد بن عقبة .. فانك اسد قريش عقلا ، واحسنهم فهما واصوبهم رأيا . معك حسن السيرة وانت موضع الرئاسة ، تورد بمعرفة وتصدر عن منهل .

واما اللين فهيهات .. والعار منقصة ، والضعف ذل .. قد عقلت نفسي على الموت عقل البعير ، واحتسبت اني ثاني عثمان او أقتل قاتله .

فعملي علي ما يكون من رأيك فانا منوطون بك متبعون عقبك ...

وكتب اليه يعلى بن امية : انا وانتم يابني امية كالحجر ؛ لا يبني بغير مدر ، وكالسيف لايقطع ؛ الا بضاربه ... ثكلتني من انا ابنها ان تمت عن طلب وتر عثمان ..

ارى العيش بعد قتل عثمان مراً ..

اما سعيد بن العاص فانه كتب بخلاف ماكتب هؤلاء » (1) .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 580 / 583 .

خلافة الامام

« لقد كان علي موفقا كل التوفيق ، ناصحا للاسلام كل النصح ..

صبر نفسه على ما كانت تكره .

وطابت نفسه للمسلمين بما كان يراه حقا ..

بايع على ثاني الخلفاء كما بايع اولهم كراهية للفتنة .. ونصحا للمسلمين .

ولم يظهر مطالبته بما كان يراه حقا له . ونصح لعمر كما نصح لابي بكر ..

وقد بايع عثمان كما بايع الشيخين . وهو يرى انه مغلوب على حقه . ولكنه على ذلك لم يتردد في البيعة ، ولم يقصر في النصح للخليفة الثالث ، كما لم يقصر في النصح للشيخين من قبله .. فكان طبيعيا اذن حين قتل عثمان ان يفكر علي في نفسه ، وفيم غلب عليه من حقه .

ولكنه مع ذلك لم يطلب الخلافة ، ولم ينصب نفسه للبيعة حين استكره على ذلك استكراها .

وحين هدده بعض الذين ثاروا بعثمان بأن يبدوا به فيلحقوه بصاحبه المقتول » (1)

أما كيفية مبايعة المسلمين لعلي بالخلافة فيصفها الطبري (2) بقوله :

« حين قتل عثمان واجتمع المهاجرون والانصار ومنهم طلحة والزبير ، فأتوا علياً وقالوا : يا أبا الحسن هل نبايعك ؟ فقال : لاحاجة لي في امركم ، فمن اخترتم فقد رضيت به ..

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 20 - 22 .

(2) تاريخ الامم والملوك 5 / 152 ، 153 .

فقالوا : مانختار غيرك .. فاختلفوا اليه بعد ما قتل عثمان مراراً ..

وخرج علي الى السوق في يوم السبت لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة فاتبعه الناس وبشوا في وجهه . فدخل حائط بني عمرو بن مبذول وقال لابي عمرة ابن عمر بن محصن : اغلق الباب . فجاء الناس فقرعوا فدخلوا وفيهم طلحة والزبير فقالا : ياعلي ابسط يدك فبايعه طلحة والزبير .

فنظر حبيب بن ذئب الى طلحة حين بايعه فقال : اول من بدأ بالبيعة يد شلاء »

وقد اوجز الامام سياسته العامة في اول خطبة خطبها حين استخلف فقال :

« ان الله انزل كتابا هاديا يبين فيه الخير والشر . فخذوا الخير ودعوا الشر .

والفرائض ادوها .. اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده ..

وانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم » (1) .

كلمات قصار ولكنها تتضمن اجراء تغيير واسع المدى ، وعميق الغور في علاقات المسلمين ببعضهم وبالخليفة .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الامام ـ كما يحدثنا مؤرخوه ـ قد اعتذر مرارا عن قبول الخلافة على الرغم من الحاح المسلمين عليه .

وقد مر بنا طرف من ذلك .

ولقد اشار الامام نفسه الى ذلك في مواطن شتى من « نهج البلاغة » قال يصف تزاحم المسلمين عليه والحاحهم الشديد على مبايعته :

« دعوني والتمسوا غيري . فانا مستقبلون امرا له وجوه والوان ، لاتقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وان الآفات قد اغامت ، والمحجة قد تنكرت .

واعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم ، ولم اصغ الى قول القائل ، وعتب العاتب » (2) . فلما اصر القوم على مبايعته ، ورأى ان واجبه الديني يدعوه الى

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 157 طبعة مصر الاولى .

(2) المصدر نفسه 2 / 170 .

تلبية الدعوة كشف لهم عن حقيقة نفسه ـ فراعهم والب الكثيرين منهم عليه ـ حين قال : « ذمتي بما اقول رهينة وانا به زعيم . ان من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات احجزته التقوى عن تقحم الشبهات .

الا وان بليتكم قد عادت لهيئتها يوم بعث الله نبيكم ..

والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة . ولتسلطن سوط القدر حتى يعود اسفلكم اعلاكم ، واعلاكم اسفلكم . وليسبقن سباقون كانوا قصروا ، وليقصرن قاصرون كانوا سبقوا (1) »

فالامام اذن يرى انهم سوف يضيقون به ذرعا لعدالته وشدته في التزام الحق فيعصون امره ، ولا يستطيعون ان يثنوه عن خطته .

ثم يصف الامام : « في خطبة اخرى » اقبال المسلمين على مبايعته فيقول :

« وبسطتم يدي فكففتها . ومددتموها فقبضتها . ثم تداككتم عليّ تداك الابل الهيم على حياضها يوم وردها ، حتى انقطع النعل وسقط الرداء ووطىء الضعيف » (2) .

واشار الامام « في خطبة اخرى » الى المعنى نفسه حين قال : « فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون الى من كل جانب .

ـ ولقد وطىء الحسنان وشق عطفاي ـ مجتمعين حولي كربيضة الغنم .

فلما نهضت بالامر نكثت طائفة ، ومرقت اخرى ، وقسط آخرون » (3) .

* * *

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 1 / 90 الطبعة الاولى بمصر .
(2) المصدر نفسه 3 / 181 التداك : الازدحام . الهيم : العطاش .
(3) المصدر نفسه 1 / 50 ـ 67 لقد مر بنا شرح كلامه في فصل سابق .

القسم الثاني

قميص عثمان

1 ـ الفصل الرابع : الناكثون ـ أصحاب الجمل ـ 36 هـ

2 ـ الفصل الخامس : القاسطون ـ أصحاب صفين ـ 37 هـ

3 ـ الفصل السادس : التحكيم ، المارقون ، ومصرع الإمام : 38 ـ 40 هـ

اشترك طلحة ، والزبير ، وعائشة في تأليب المسلمين على عثمان ، كما ساهم كل منهم بقلبه ولسانه في قتل الخليفة على الشكل الذي وصفناه .

وكان اشد الثلاثه وطأة على عثمان الزبير بن العوام ، واخفهم طلحة بن عبيد الله . هذا مع العلم بأن عثمان كان يقول عن طلحة ـ وهو اخفهم وطأة عليه كما ذكرنا :

« ويلي من طلحة ! اعطيته كذا ذهبا وهو يروم دمي ... اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » (1) .

ويلوح للباحث ان طلحة قد تظاهر بالمطالبة بدم عثمان ـ في اوائل خلافة الامام ـ وهو ادرى من غيره بقتلة الرجل وبالدور الذي لعبه هو ـ والزبير وعائشة ـ في هذا الشأن ليغالط الناس ويوهمهم « انه برىء من دمه . فلقد قال علي لطلحة وعثمان محصور :

انشدك الله الا رددت الناس عن عثمان ؟ قال طلحة :

لا والله حتى تعطي بنو امية الحق من انفسها .

ويروي الطبري : ان عثمان كان له على طلحة خمسون الفاً . فخرج عثمان يوماً الى المسجد فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فأقبضه » فقال : هو لك يا ابا محمد معونة لك على مروءتك .

قال : فكان عثمان يقول وهو محصور : جزاء سنمار .

وروى المدائني في كتاب « مقتل عثمان » : أن طلحة منع من دفنه ثلاثة ايام . وان حكيم بن حزام ... وجبير بن مطعم . استنجدوا بعلي على دفنه ، فأقعد طلحة

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى : علي وبنوه » ص 8 .

لهما في الطريق ناساً بالحجارة » (1) . ولم يكن طلحة على مايقول الدكتور طه حسين : « ليخفى ميله مع الثائرين ولا تحريضه لهم ولا اطماع فريق منهم في نفسه . وكثيرا ماشكا منه عثمان في السر والجهر .

والرواة يتحدثون بأنه استعان عليه بعلي نفسه ، وبأن عليا استجاب له فذهب الى طلحة ورأى عنده جماعة ضخمة من الثائرين . وحاول ان يرده عن خطته تلك فلم يستجب له طلحة » (2) .

واما عائشة فقد مر بنا ذكر موقفها من عثمان ، فقد خرجت مرارا ـ كما ذكرنا ـ بقميص النبي مؤلبة على عثمان وقائلة .

اقتلوا نعثلا . وكثيرا ما كانت تصيح به ـ من وراء سترها ـ وهو على المنبر ؛ كما ذكرنا ، تلومه على بعض فعاله .

فقد كانت عائشة ـ والحق يقال ـ من اعظم المؤلبين على الخليفة الثالث والمخذلين عن نصرته حتى انه حين بلغها ـ وهي في بيت الله الحرام :

ان عثمان قد انتصر على اعدائه صرخت بأعلى صوتها .

ايقتل قوما جاءوا يطلبون الحق وينكرون الباطل .

وقد سأل سعيد بن العاص ام المؤمنين ، قبل سفرها الى البصرة .

« أين تريدين يا ام المؤمنين ؟ فقالت : اريد البصرة . وماذا تصنعين ؟

اطلب بدم عثمان . فأجابها سعيد : ان قتلة عثمان معك يا ام المؤمنين » (2) .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول : ان ابطال حركة الجمل كانوا قادة الثورة على عثمان ورءوس الفتنة التي انتهت بمصرع ثالث الخلفاء الراشدين .

---

(1) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » 2 / 505 ، 506 الطبعة الاولى بمصر .

(2) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 8 .

(3) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 3 / 427 ، 428 .

وقد كان هؤلاء ـ دون شك ـ عارفين حق المعرفة ـ كغيرهم من المسلمين آنذاك ـ من هم قتلة عثمان ؟

ترى لماذا البوا الناس على علي ؟ !

وهل هناك عوامل خفية ـ قريبة وبعيدة ـ ساقتهم الى القيام بعصيانهم المسلح ضد النظام القائم متخذين من قميص عثمان ذريعة لذلك ؟

ولماذا بايع طلحة ، والزبير عليا بالخلافة ؟

هل المطالبة بدم عثمان ـ ان صحت ـ تستلزم الثورة على النظام القائم ام تتم على اساس تقديم شكوى ، من قبل اولياء عثمان الذين عينهم القرآن بصراحة في سورة الاسراء(1) ـ الى الحكومة لتجري التحقيق في ذلك وتتخذ الاجراءات القانونية بحق الذين تثبت ادانتهم ؟

وما حق عائشة وطلحة والزبير ـ من الناحية الشرعية ـ بالمطالبة بدم عثمان ؟ ان ولى عثمان هو ابنه عمرو ؟ !

وما شأن البصرة الثورة على عثمان ؟

لماذا لم يتجهوا الى مصر المؤلبة ؟ وبقدر مايتعلق الامر بالسيدة عائشة نستطيع ان نقول : ان جفاء حصل بين عائشة وعلي ـ منذ عهد الرسول ايام غزوة بني المصطلق التي سنذكرها ..

وهناك عامل آخر اشار اليه بعض الباحثين المحدثين (2) ملخصه :

ان السيدة عائشة وجدت على الامام ـ من الناحية النفسية ـ فحسدته لعقمها ، ولان عقب الرسول قد انحصروا في بنيه من فاطمة زوج علي ، ولكي نعرض على

---

(1) « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما لقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً » الاسراء : 33 ، بغض النظر عن شرعية القتل او عدمها .

(2) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى » ، وعبد الفتاح عبد المقصود : « الامام علي ابن ابي طالب » .

القارىء عوامل الجفاء بين السيدة عائشة وعلي بن ابي طالب نرى لزاما علينا ان نترك السيدة عائشة نفسها تقص

على القارىء ملابسات الموضوع .

قالت السيدة عائشة (1) « كان رسول الله اذا اراد سفرا اقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بني المصطلق (6 هـ) اقرع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمي عليهن . فخرج بي رسول الله .. فلما انتهى من سفر ؟؟؟ وجه قافلاً حتى اذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ثم اذن في الناس بالرحيل .

فلما ارتحل الناس خرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي .. فلما فرغت انسل عقدي ولا ادري .

فلما رجعت الى الرحيل ذهبت التمسه في عنقي فلم اجده .

وقد اخذ الناس في الرحيل فرجعت .. الى المكان الذي ذهبت اليه ، فالتمسته حتى وجدته .. ورجعت الى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب ؛ قد انطلق الناس . فلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني ، فوالله اني لمضطجعة اذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي ـ وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس في المعسكر ـ فلما رأى سوادي اقبل حتى وقف علي فعرفني .. ثم قرب البعير فقال : اركبي .. فركبت .

فانطلق سريعا يطلب الناس .. ثم قدمنا المدينة فلم امكث ان اشتكيت شكاية شديدة .. وقد انتهى الحديث الى رسول الله والى ابوي .

فأنكرت من رسول الله بعض لطفه بي . حتى وجدت في نفسي مما رأيت من جفائه عني . فقلت :

يا رسول الله لو اذنت لي فانتقلت الى امي فمرضتني ، قال :

لا عليك ، فانتقلت الى امي .

وجاء رسول الله فدخل علي : ودعا علي بن ابي طالب .

---

(1) الطبري « تاريخ الامم والملوك 3 / 76 - 70 .

فقال علي : يا رسول الله ان النساء لكثير ، وانك لقادر على ان تستخلف ؛ وسل الجارية فانها تصدقك .

فدعا رسول الله بريرة يسألها .. فقام اليها علي فضربها ضربا شديداً وهو يقول :

اصدقي رسول الله ... فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما يتغشاه . فسجى بثوبه ووضعت وسادة من ادم تحت رأسه .. ثم جلس فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول : ابشري يا عائشة فقد انزل الله براءتك .

ثم امر بمسطح بن اثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بن جحش ـ وكانوا ممن افصح بالفاحشة ـ فضربوا حدهم » .

يتضح ـ من رواية السيدة عائشة ـ انها خرجت مع النبي في مسيرة مع جيشه الى بني المصطلق ، وانها اثناء رجوع القوم الى المدينة ـ شذت عن الركب لبعض حاجتها ـ دون ان يعلم بها احد من الناس ، ثم عادت الى الركب . ولكنها تفقدت عقدها ـ اثناء عودتها ـ فلم تجده في جيدها . فعادت الى المكان الذي جاءت من عنده ـ دون ان يراها احد من الناس فعثرت على العقد . ثم عادت الى الركب فلم تجده . فمكثت في مكانها ـ بعد ان سار الركب دون ان يتفقدها احد .

فمر بها صفوان ـ الذي هو الاخر ـ كما تحدثنا السيدة عائشة نفسها ـ قد شذ عن الركب لبعض حاجته ، وقد مر صفوان ـ على رسله ـ صدفة بالمكان الذي كانت السيدة عائشة جاثمة فيه . فأركبها على ناقته واتجه بها نحو المدينة كي يلحق

بالركب .

وقد ارتاب بعض القوم ، بما فيهم حسان بن ثابت في موضوع عائشة وصفوان فرموهما بالفاحشة ... واشار علي على النبي ـ عندما استشاره بأمرها في حضورها ـ ان يطلقها .

ومن الجدير بالذكر ـ في هذه المناسبة ـ ان البخاري في صحيحه قد نقل رواية السيدة عائشة مفصلة . والى القارىء رواية البخاري (1) .

---

(1) صحيح البخاري 3 / 154 ، 156 و 5 / 55 ، 56 .

« قالت عائشة : كان رسول الله اذا اراد سفرا اقرع بين ازواجه فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . قالت عائشة :

فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي . فخرجت مع رسول الله .. فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله من غزوته تلك ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل . فقمت ـ حين آذنوا بالرحيل ـ فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت الى رحلي فلمست صدري فاذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه . قالت :

واقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت اركب عليه وهم يحسبون اني فيه . وكان النساء آنذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، انما يأكل الملعقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه .

وكنت جارية حديثة السن .. ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش .

فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولامجيب . فتيممت منزلي الذي كنت به .

فبينما انا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش . فأصبح عند منزلي . فرأى سواد انسان نائم فعرفني ، وكان رآني قبل نزول آية الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه .. وهوى حتى اناخ راحلته فوطىء على يدها .

فقمت اليها فركبتها . فانطلق يقودها » . اي ان السيدة عائشة ـ حسب رواية البخاري ـ شذت عن الجيش لبعض شأنها في اللحظة التي آذنوا بالرحيل ليلا ، دون ان تخبر أحداً منهم بذلك او تطلب منهم انتظارها . وان الاشخاص الموكلين يحمل هودجها لم يشعروا بخلوه منها لان النساء آنذاك ـ جميعهن لا السيدة عائشة وحدها ـ كن نحيفات الاجسام لقلة ما يتناولنه من الطعام .

ولأن السيدة عائشة بالذات كانت صغيرة اللسن ، بالاضافة الى خفة وزن جسمها فلم يستنكروا خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وهو خلو منها .. ثم انها نامت بعد ان يئست من القوم ، وكان صفوان من وراء الجيش ، فأدركها نائمة

فعرفها ـ وهو سائر في الصحراء ليلا ـ لانه كان قد رآها قبل الحجاب ، اي حينما كانت سافرة قبل ان يأمرها الله بالتحجب من الرجال ، فحملها صفوان على بعيره واوصلها الى مكان امنها .

ذلك مايتصل ببعض عوامل الجفوة بين ام المؤمنين وعلي بن ابي طالب .

وهنالك عوامل اخرى ، غير مباشرة ، تتعلق بالجفاء الذي كان بين السيدة فاطمة « بنت النبي من خديجة » وبين السيدة ام المؤمنين بنت ابي بكر .

فقد كانت السيدة عائشة تريد الاستئثار بحب النبي وتحويل ما تبقى من ذلك الحب الى ابيها بدلا من علي زوج فاطمة .

ويذكر بعض الرواة (1) : ان للسيدة عائشة ـ والسيدة حفصة بنت عمر زوج النبي ـ ضلعا في تأخير جيش اسامة في عهد الرسول .

هذا بالاضافة الى العامل النفسي المتصل بحرمان السيدة عائشة من النسل كما اشار الى ذلك الدكتور طه حسين ، والاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود .

اما مايتصل بموقف الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله تجاه امام زمانهما فيمكننا ان نكشف عوامله القريبة والبعيدة بسهولة ويسر .

فقد كان كل من طلحة والزبير راغبا في الخلافة منذ زمن ليس بالقصير وقد مر بنا ترشيح عمر لها في رهط الشورى .

فلما انتقلت الخلافة الى عثمان حاول الرجلان ـ في صدر خلافته ـ ان ينتفعا به الى اقصى حدود الانتفاع .

وعندما رأى الرجلان تأزم الاحوال العامة على الخليفة ساهما في ذلك الى حد كبير على الشكل الذي وصفناه ظنا منهما ان الامر ـ بعد اندحار عثمان ـ سوف ـ

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » .

لاينتقل لعلي ـ غير ان انتقال الخلافة للامام قد راعهما . فبايعاه على مضض . ثم سألاه عن ولايتي الكوفة والبصرة فلم يجبهما .

يضاف الى ذلك ان موقف الامام الشديد في تطبيق مبادىء الدين كان هو الآخر من اقوى عوامل انتقاض الرجلين على الخليفة . فلكل منهما مصالح مركزة في جسم الدولة .

ويلوح للباحث ان طلحة والزبير كانا قد اعتادا على الاستئثار ببعض الموارد العامة بعد وفاة الرسول .

وقد مر بنا ذكر بعض ما وصلهما به عثمان .

اما ماحصلا عليه في عهد الشيخين فنذكر منه المثالين التاليين :

قال البلاذري (1) : « حدثني الحسين بن علي الاسود العجلي قال : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابو معاوية عن هشام بن عروة عن عروة قال : اقطع ابو بكر : الزبير ، بين الجرف الى قناة . واخبرني المدائني قال :

قناة واد يأتي من الطائف ويصب الى الارحضية وقرقرة الكدر ثم يأتي سد معاوية ثم يمر على طرف القدوم ويصب في اصل قيدر الشهداء بأحد .

وحدثني الحسين بن علي العجلي قال : حدثنا حفص بن عتاب عن هشام بن عروة قال : خرج عمر يقطع الناس ،

وخرج معه الزبير ، فجعل عمر يقطع حتى مر بالعقيق . فقال اين المستقطعون ؟ .. ما مررت بقطعة اجود منها .

فقال الزبير : اقطعنيها . فأقطعه اياها « .

فلا عجب ان رأى الزبير وطلحة في قميص عثمان ضالتهما المنشودة للانقضاض على الامام .

وقد روى احد المؤرخين (2) ملابسات الموقف بين علي من جهة وطلحة والزبير

---

(1) فتوح البلدان ص 26 .

(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 3 / 4 - 9 الطبعة الاولى .

من جهة اخرى حين قال : « ارسل طلحة والزبير الى علي - قبل خروجهما الى مكة - محمد بن طلحة يقولان : اننا اصلحنا لك الامر ووطدنا لك الامرة ، واجلبنا على عثمان حتى قتل . فلما طلبك الناس لامرهم جئنا واسرعنا اليك وبايعناك وقدنا اليك اعناق العرب ، ووطىء المهاجرون والانصار اعقابنا في بيعتك . حتى اذا ملكت عنانك استبددت برأيك عنا ورفضتنا رفض التريكة واذللتنا ذل الاماء .

فلما جاء محمد بن طلحة ابلغه ذلك . فقال : اذهب اليهما فقل لهما : فما الذي يرضيكما ، فذهب وجاء فقال : انهما يقولان : ول احدنا البصرة ، والآخر الكوفة . فقال :

لها الله !! اذن يحكم الاديم ويستشرى الفساد ، وتنتقض علي البلاد من اقطارها .

والله اني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة فكيف آمنهما وقد وليتهما العراقين ! . فاستأذناه في الخروج الى مكة للعمرة .

فأذن لهما بعد ان احلفهما الا ينقضا بيعته ولايغدرا به ، ولا يشقا عصا المسلمين ولايوقعا الفرقة بينهم ، وان يعودا بعد العمرة الى بيوتهما فحلفا على ذلك كله . ثم خرجا ففعلا ما فعلا .

وكان الامام قد خاطبهما - قبل خروجهما الى مكة - فقال :

الا تخبراني اي شيء كان لكما فيه حق حتى دفعتكما عنه ؟ ام اي قسم استأثرت عليكما به ؟ ام اي حق رفعه الى احد من المسلمين ضعفت عنه ام جهلته ام اخطأت بابه ؟ والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ، ولافي الولاية اربة . ولكنكم دعوتموني وجملتموني عليها . فلما افضت الي نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وامرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبي فاقتديته .

فلم احتج في ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما .

ولو وقع حكم جهلته فأستشيركما « .

وقد وصف الامام فتنة طلحة والزبير واعوانهما بقوله :

« والله ما انكروا علي منكرا ، ولا جعلوا بيني وبينه نصفا ، وانهم ليطلبون حقا هم تركوه ... ودما هم سفكوه ، (1) .

* * *

خرج الزبير وطلحة وعائشة يريدون البصرة مدعين بأنهم يطالبون بدم عثمان . وقد ارتكبوا ـ بعملهم هذا . كما سلف ان ذكرنا جملة اخطاء من الناحية الدينية والزمنية ، فليس من حقهم ان يطالبوا بدم عثمان لانهم ليسوا اولياءه الذين اجازت لهم الشريعة الاسلامية ان يطالبوا بذلك .

ان وليه ـ كما ذكرنا ـ ابنه عمرو . وانهم اتبعوا اسلوبا فظا للتوصل الى مازعموا انهم يسعون اليه بدلا من ان يرفعوا ـ اذا جاز لهم ذلك ـ طلبهم الى الخليفة الذي له وحده الحق ـ بحكم كونه خليفة المسلمين ـ في اجراء التحقيق وانزال العقوبة بالجناة .

وانهم ارتكبوا من الافعال البشعة ومن القتل ، والنهب والاعتداء ـ كما سنرى ـ ما يتضاءل دونه بمراحل مصرع الخليفة الذبيح على اهميته ، ومالا تجيزه الشريعة السمحاء ومبادىء الشرف والاخلاق .

وانهم قصدوا البصرة ـ دون مصر ـ للبحث عن القاتلين .

وان السيدة عائشة بالذات لايجوز لها ان تساهم في مثل هذه الامور ، وقد اوصاها الله ان تقر في بيتها (2) .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 2 / 403 - 405 .

(2) في لقاء لي مع : الدكتور طه حسين عام 1965 م سألته : عن رأيه في عائشة اجاب بقوله : كان احد الاساتذة يقول : لو ادركت عائشة لاوجعتها ضرباً حتى اقعدتها في بيتها لقوله تعالى : « **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى** » الاحزاب : 33 . راجع كتابنا : « مع رجال الفكر في القاهرة » ص 160 / 175 الطبعة الاولى القاهرة ـ مطبعة حسان عام 1974 م . « الناشر »

ثم هل يجوز شرعا ان تعالج فتنة باثارة فتنة اغلظ منها ؟ وقد حصل ذلك كله مع علم الثائرين ان الامام نفسه بريء من دم عثمان براءة الذئب من دم ابن يعقوب . (1)

يضاف الى ذلك ان الامام ـ في سياسته العامة ـ لم يتجه اطلاقا الى الاستعانة بالذين ثاروا على عثمان او تقريبهم او الاعتماد عليهم في الادارة او المال .(2)

فلا غرو ان رأينا اولئك الثوار قد نقموا عليه ، كما نقموا على عثمان من قبله « مع فرق كبير في عوامل تلك النقمة في الحالتين » . فقد نقموا على عثمان : خروجه في سياسته العامة على مبادىء الدين ، ونقموا على علي : تقيده ـ في سياسته العامة ـ بمبادىء الدين .

لذلك نجد الامام لم يقربهم اليه او يعين بعضهم في القضاء اوالامارة او الادارة

وقد اصبح الوضع الجديد اشد وطأة عليهم منه في عهد عثمان .

اي ان الامام ، بعبارة اخرى ، قد ارتقى منبر النبي بعد ثورة لم يساهم فيها .

اي انه اقتطف ثمار ثورة لم يقتطفها الذين قاموا بها . يضاف الى ذلك ان الثوار اخذوا يشعرون بأن الامام سوف يقتص من قتلة عثمان بعد حصول البينة عنده .

وطلحة ، والزبير ، وعائشة يعرفون ذلك حق المعرفة . وعلي نفسه عارف بأنهم عارفون به .

ومهما يكن من شيء فقد خرج الناكثون ـ وعلى رأسهم طلحة وابن الزبير وبنت ابي بكر ـ من مكة يريدون البصرة .

ومرت ابلهم ـ في طريقها على ماء الحوأب (3) » فنبحتهم كلابه . فنفرت صعاب ابلهم .

فقال قائل منهم : لعن الله الحوأب فما اكثر كلابها !!

فلما سمعت عائشة قالت :

ردوني ... اني سمعت رسول الله يقول :

كأني بكلاب الحوأب قد نبحت بعض نسائي ثم قال : اياك ياحميراء ان تكونيها ...

---

(1) هذا التشبيه غير مؤدب « الناشر »

(2) وهو ماء لبني عامر بن صعصعة يقع في بادية العراق الجنوبية .

(3) ويذكر التاريخ ان الامام استعان على جملة منهم كعمار بن ياسر ومحمد بن ابي بكر ومالك الاشتر وغيرهم « الناشر »

فقال الزبير لعائشة : مهلا فانا قد جزنا ماء الحوأب .. فلفق لها الزبير وطلحة خمسين اعرابيا شهدوا بذلك . فكانت هذه اول شهادة زور في الاسلام .. وكتب على عثمان بن حنيف واليه في البصرة : اما بعد فان البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا (1)

فاذا قدموا عليك فادعهم الى الطاعة ... فان اجابوا فأحسن جوارهم .

فلما وصل الكتاب ارسل عثمان بن حنيف ابا الاسود الدؤلي وعمران بن الحصين الخزاعي ، فانطلقا . فدخلا على عائشة ووعظاها .. فقالت : القيا طلحة والزبير ... فقاما من عندها ولقيا : الزبير فكلماه ، فقال لهما : اننا جئنا للطلب بدم عثمان ... فقالا له : ان عثمان لم يقتل بالبصرة ليطلب بدمه فيها ، وانت تعلم من هم قتلته واين هم ، وانك وصاحبك وعائشة كنتم اشد الناس عليه واعظمهم اغراء بدمه ... وقد بايعتم عليا طائعين .. فقال لهما .. اذهبا فالقيا طلحة .

فقاما الى طلحة فوجداه خشن الملمس .. في اثارة الفتنة واضرام نار الحرب .

وأتى طلحة والزبير عبد الله بن حكيم التميمي فأتى بكتب كان كتباها اليه ، فقال لطلحة : أما هذه كتبك الينا ؟ قال : بلى .

قال : فكتبت امس تدعونا الى خلع عثمان وقتله ، حتى اذا قتلته اتيتنا ثائراً بدمه .

وخرج عثمان بن حنيف الى طلحة والزبير في اصحابه فناشدهما الله والاسلام وذكرهما بيعتها لعلي ... فقالا نطلب بدم عثمان ، فقال لهما : ما انتما وذاك ؟ أين بنوه ... الذين احق منكم ؟ فشتماه شتما قبيحا ..

ثم كتب الطرفان كتاباً للصلح ... الى ان يقدم الخليفة ... فمكثوا كذلك اياما .

ثم ان طلحة والزبير ... اجتمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب ... فبايعهم على ذلك الازد ، وضبة ، وقيس بن غيلان ... وبنو عمرو بن تميم ، وبنو حنظلة ... وبنو دارم كلهم الا نفرا من بني مجاشع ذووى دين وفضل .

---

(1) يشير الى بيعة الزبير وطلحة له ، ثم نكوصهما عن ذلك ، والى عهدهما له حين خرجا للعمرة من المدينة لمكة ـ بالرجوع الى المدينة وخرقهما

لذلك العهد .

فلما استوثق لطلحة والزبير امرهما ، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ومعهما اصحابهما قد البسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب . فانتهوا الى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف اليه واقيمت الصلاة فتقدم عثمان ليصلي بهم فأخره اصحاب طلحة والزبير ، وقدموا الزبير ، فجاءت السيابجة (1) . فأخروا الزبير وقدموا عثمان بن محنيف ، فغلبهم أصحاب الزبير فقدموا الزبير وأخروا عثمان ، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع ، وصاح بهم : المسجد .. فغلب الزبير فصلى بالناس .

فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المسلمين : ان خذوا عثمان بن حنيف ، فأخذوا وضربوه ضرب الموت ، ونتف حاجباه واشفار عينيه وشعر رأسه ووجهه واخذوا السيابجة ... فانطلقوا بهم وبعثمان بن حنيف الى عائشة .. فأمرت بذبح السيابجة ، فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف اول غدر كان في الاسلام » (2) .

ويجمل بنا ـ اكمالا للبحث في هذه النقطة ـ أن ننقل للقارىء قصة الناكثين كما رواها ابن الاثير (3) :

« خرجت عائشة الى مكة وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة تريد المدينة ، فلما كانت بسرف (4) لقيها رجل من اخوالها من بني ليث يقال له : عبيد الله بن ابي سلمة ـ وهو ابن أم كلاب ـ فقالت له : مهيم ؟ قال : قتل عثمان وبقوا ثمانيا .. قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : اجتمعوا على بيعة علي فقالت :

ليت هذه انطبقت على هذه .. ردوني .. فانصرفت الى مكة تقول : قتل عثمان .

---

(1) وهم : الشرطة حرس بيت المال ، وهم قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة وحرس سجون .

(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 2 / 497 - 501 .

(3) الكامل في التاريخ : 5 / 105 - 133 .

(4) موقع بين مكة والمدينة .

مظلوما (1) ، فقال لها عبيد الله بن ابي سلمة :

ان اول من امال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا فقد كفر .

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام * وقلت لنا : انه قد كفر
فهبنا اطعناك في قتله * وقاتله عندنا من أمر

فانصرفت الى مكة فقصدت الحجر فتسترت فيه ، فاجتمع الناس حولها ، فقالت : ايها الناس ان الغوغاء من اهل الامصار .. سفكوا الدم الحرام .. والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض .

وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ، ويعلى بن امية - بن منية - من اليمن فلقيا عائشة ، فاستقام الرأي على البصرة ، وكان ازواج النبي مع عائشة على قصد المدينة ، فلما تغير رأيها الى البصرة تركن ذلك .

وخرجت عائشة ومن معها من مكة ، فلما خرجوا منها اذن مروان بن الحكم

ثم جاء طلحة والزبير وقال : على ايكما اسلم بالامرة ، فقال عبد الله بن الزبير على ابي ، وقال محمد بن طلحة على ابي ، فأرسلت عائشة الى مروان وقالت له :

أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصل بالناس ابن أختي عبد الله بن الزبير .

وكان معاذ بن عبد الله يقول : والله لو ظفرنا لاقتتلنا ، ماكان الزبير يترك طلحة والامر ، ولا كان طلحة يترك الزبير والامر .. فلما بلغوا ذات عرق لقى سعيد بن العاص مروان بن الحكم واصحابه بها فقال : أين تذهبون وتتركون ثأركم على اعجاز الابل وراءكم ؟ يعني عائشة ، وطلحة والزبير ، اقتلوهم ثم ارجعوا الى منازلكم .

---

(1) لابد ان القارىء قد لاحظ ان السيدة عائشة لم تعلق بشيء حين سمعت بمقتل عثمان ، ولكنها ثارت لمجرد سماعها باجماع المسلمين على بيعة علي فطلبت ان يردوها الى مكة واصبح عثمان مظلوما بنظرها .

ثم خلا بطلحة والزبير فقال : ان ظفرتما لمن تجعلان الامر ؟ ومضى القوم ، ومروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، فأتوا الحفير .

ولما بلغ ذلك اهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن الحصين ، وابا الاسود الدؤلي وقال لهما : انطلقا الى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها .

فخرجا : فأتيا اليها بالحفير ، فأذنت لهما فدخلا وسلما ، وسألاها عن سبب خروجها .

فقالت : المطالبة بدم عثمان ... فأتيا طلحة ... فقال : المطالبة بدم عثمان ، فأتيا الزبير وقال لهما : مثل قول طلحة ، فرجعا الى عثمان بن حنيف وأخبراه ...

واقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا الى المربد ... فتكلم طلحة بالناس وذكر عثمان وفضله ... ودعا الى الطلب بدمه وحثهم على الاخذ به .

وكذا فعل الزبير ، وعائشة ... واقبل جارية بن قدامة السعدي وقال : يا أم المؤمنين :

والله لقتل عثمان اهون من خروجك من بيتك ... وقد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وابحت حرمتك ...

وخرج غلام شاب من بني سعد الى طلحة والزبير وقال : هل جئتما بنسائكما ؟

صنتم حلائلكم وقدتم امكم * هذا لعمرك قلة الانصاف
أمرت بجر ذيولها في بيتها * فهوت تشق البيد بالايجاف
غرضا يقاتل دونها ابناؤها * بالنيل والخطى والاسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها * هذا المخبر عنهم والكاف

- وجرت بين الطرفين مناوشات باللسان وبالسيف -

ثم كتبا كتابا للصلح وتهادنا .. وجاء في كتاب الصلح :

هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما ... وعثمان بن حنيف ومن معه .

ان عثمان يقيم حيث ادركه الصلح على مافي يده ، وان طلحة والزبير يقيمان

---

(150)

حيث ادركهما الصلح على مافي ايديهما .. ولايضار واحد من الفريقين في مسجد ولا سوق ولا طريق .. ولكن طلحة والزبير جمعا رجالهما في ليلة مظلمة ذات رياح ومطر .

ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء .

فقاتلوا أصحاب عثمان بن حنيف في المسجد .. وأخذوا عثمان أسيرا .

وضربوه اربعين سوطا ونتفوا لحيته ، وحاجبيه واشفار عينيه وحبسوه .

وكتبت عائشة الى زيد بن صوحان :

من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله الى ابنها الخالص زيد بن صوحان اما بعد : فان اتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا فان لم تفعل فخذل الناس عن علي ، فكتب اليها :

اما بعد : فأنا ابنك الخالص ان اعتزلت ورجعت الى بيتك . والا فأنا اول من نابذك . وقال زيد :

رحم الله أم المؤمنين امرت ان تلزم بيتها وامرنا ان نقاتل ، فتركت ما امرت به وامرتنا به وصنعت ما امرنا به ونهيتنا عنه .

وقام طلحة والزبير خطيبين يطالبان بدم عثمان .. فقال الناس لطلحة : يا ابا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا .. ثم قام رجل من عبد قيس فقال :

يا معشر المهاجرين .. لما توفي الرسول بايعتم رجلا منكم فرضينا وسلمنا . . ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا .

فلما توفي جعل امركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورتنا

ثم انكرتم منه شيئا فقتلتموه عن غير مشورة منا .

ثم بايعتم عليا عن غير مشورة منا . فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفيء ؟ ام عمل بغير الحق ؟ أو أتى شيئا تنكرونه ؟ فنكون معكم عليه . والا فما هذا ؟ فهموا بقتل ذلك الرجل فمنعته عشيرته .

فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه فقتلوا منه سبعين .

---

(151)

وبقى طلحة والزبير [بعد اخذ عثمان بن حنيف] بالبصرة ومعهم بيت المال والحرس .

وتجهز علي الى الشام . فبينما هو كذلك اتاه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة . فتوجه الى البصرة ووقعت الحرب وانتصر علي ، فدخل البصرة ... وراح الى عائشة وهي في دار عبد الله بن خلف .. وكانت صفية زوجة عبد الله

مختمرة ... فلما رأته كلمته بكلام غليظ . فلم يرد عليها شيئا ، ودخل على عائشة وسلم عليها وقعد عندها . ثم قال :

جبهتنا صفية ... فلما خرج اعادت صفية عليه قولها . فكف بغلته وقال :

هممت أن افتح هذا الباب ـ واشار الى باب في الدار ـ واقتل من فيه . وكان فيه ناس من الجرحى فأخبر علي بمكانهم فتغافل عنهم .

وكان مذهبه الا يقتل مدبرا ولا يدنف على جريح (1) ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا .

ولما خرج علي ... قال له رجل من أسد : والله لاتغلبنا هذه المرأة . فقال له :

لا تهتكن سترا ، ولا تدخلن داراً ، ولا تهيجن امرأة بأذى ، وان شتمن أعراضكم وسفهن امراءكم وصلحاءكم .. ومضى فلحقه رجل فقال يا امير المؤمنين :

قام رجلان على الباب فتناولا من هو امض شتما لك من صفية . قال :

ويلك لعلها عائشة ! قال نعم ، فبعث القعقاع بن عمرو الى الباب فأقبل بمن كان عليه فأحالوا على رجلين من ازد الكوفة وهما : عجلان ، وسعد ، ابنا عبد الله ، فضربهما مئة سوط واخرجهما من ثيابهما .

ثم جهز عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك ، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها الا من احب المقام ، واختار لها اربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات .

وسير معها اخاها محمد بن ابي بكر .

---

(1) يدنف : اي مجهز عليه بالقال . « الناشر »

فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه اتاها علي فوقف لها .

وحضر الناس ، فخرجت وودعتهم ، وقالت :

يا بني لا يعتب بعضنا على بعض ، انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها ... وشيعها على اميالا وسرح بنيه معها يوما .

وقال عمار حين ودعها : ما ابعد هذا المسير من العهد الذي عهد اليك ؟ قالت : والله انك ـ ما علمت ـ تقول الحق . قال : الحمد لله الذي قضى على لسانك لي » .

تلك هي قصة الناكثين . ولا نشك في ان القارىء قد لاحظ معنا الجرائم الكثيرة التي قاموا بها ؛ ومدى صلتها بالمطالبة بدم الخليفة الذبيح . فقد لفق الزبير وطلحة خمسين شاهد زور لعائشة في ماء الحوأب .

وكانت اول شهادة زور في الاسلام ، على مايروي المؤرخون . وفي معرض التحدث عن شهادة الزور بنظر النبي يقول البخاري في صحيحه (ج 8 ص 48) بأسانيده المختلفة عن ابي بكرة قال : « قال النبي اكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور ثلاثاً اقولها ، او اقول شهادة الزور .

فما زال يكررها ، قلنا : ليته سكت !! » .

على أن أم المؤمنين ـ لو كانت جادة في امر عودتها الى المدينة قبل ان تبلغ البصرة ـ لما ثناها عن ذلك ـ برأينا ـ شهود الزور . ذلك لانهم لم ينفوا مرورهم بالحوأب وانما قالوا : انهم مروا به قبل فترة .

وقد نكث الزبير وطلحة بيعتهم لعلي ، ونقضا عهدهما لعثمان بن حنيف مخالفين بذلك نص الاية الكريمة :

« وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا »

كما اعتديا على حرمة المسجد وعلى الصلاة وقتلا السيابجة غدراً وصنعا ماصنعا بعثمان

ابن حنيف والي البصرة ، ولعل موقف الناكثين في باطلهم من عثمان بن حنيف ـ في حقه ـ يعيد الى الذاكرة ـ على قاعدة وبضدها تتميز الاشياء ـ موقف النبي على حقه من سهيل بن عمرو ـ وهو على باطل ـ حين قال عمر بن الخطاب للنبي على مايحدثنا الطبري (1) . :

« انتزع ثنيتي سهيل بن عمرو السفليين ، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن ابداً . فقال رسول الله : لا امثل به فيمثل الله بي وان كنت نبياً » .

فقد امتنع الرسول الكريم عن التمثيل بأحد شيوخ المشركين ، في حين ان عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير قد مثلوا بأمير البصرة وهو شيخ من افاضل المسلمين دون ان يقترف ذنبا يستحق عليه العقاب اللهم الا الوقوف بوجه العصاة على الخليفة ومن ورائه كتاب الله وسنة الرسول .

ولسنا نعلم صلة ذلك بالمطالبة بدم عثمان .

وهل : الاعتداء على عثمان ـ بغض النظر عن مسبباته ـ اكثر فظاعة من الاعتداء على عثمان بن حنيف واصحابه ؟

ولماذا اعتدى طلحة والزبير على مسلمي البصرة ؟

هل يجيز الدين الحنيف ذلك الاعتداء من حيث المبدأ العام ؟ ومن حيث الشكل الذي وقع فيه ؟

ذكر الامام مسلم (2) بأسانيده المختلفة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال رسول الله : اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا وعد اخلف ، واذا خاصم فجر » .

---

(1) تاريخ الامم والملوك 2 / 289 .

(2) صحيح مسلم 1 / 42 .

والمنافقون ، كما وصفهم الله في سورة المنافقين :

« واتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ألا ساء ما كانوا يعملون » (1) .

ونحن نترك للقارىء تقدير الخلال الاخرى « تزيد عن الخلال الاربع » التي اتصف بها الناكثون .

ويتجسم ذلك الموقف اذا ما وازنه القارىء بموقف الامام الكريم ، في حربه وسلمه ، مع خصومه وانصاره على السواء .

* * *

(1) المنافقين : 2 .

القاسطون

لقد مر بنا الحديث ـ في فصل سابق ـ عن حركة الناكثين ، تلك الحركة التي زرعت بذور التمرد ـ على النظام ـ في جسم المجتمع الاسلامي في عهد الامام

وحركة الناكثين ماهي ـ في الواقع ـ الا جانب واحد من جوانب الصراع المسلح بين علي ومناوئيه ، وهي صورة من اروع صور الصراع بين الحق والباطل .

وقد شجعت فتنة الجمل ـ القاسطين ـ الحائرين ـ معاوية واصحابه على القيام بعصيان مسلح على نظام الحكم في البلاد ، كما أتاحت لهم فرصة التجمع وحشد قوى الشر والارهاب لمقاومة مبادىء الدين الحنيف الممثلة في خلق الامام وفي سياسته العامة .

وقد انضوى تحت لواء معاوية كل من كان حاقداً على الامام لعدالته وسلامة معتقداته في السياسة والدين والاخلاق .

من ذلك مثلا :

أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب كان قد التحق بمعاوية « خوفا من علي ان يقيده بالهرمزان . وذلك ان ابا لؤلؤة ـ غلام المغيرة بن شعبة ـ قاتل عمر كان في ارض العجم غلاما للهرمزان فلما قتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله ...

وكان الهرمزان عليلا في الوقت الذي قتل فيه عمر .. فعفا عثمان عن عبيد الله فلما صارت الخلافة لعلي اراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله اياه ظلما من غير سبب استحقه . فلجأ الى معاوية » (1) .

(1) المسعودي « مروج الذهب ومعادن الجوهر » 2 / 261 .

ولجأ الى معاوية كذلك مصقلة بن هبيرة الشيباني ـ عامل علي في احدى خطط فارس .

وسبب ذلك ان مصقلة كان قد اشترى اسرى الخوارج من جماعة الخريت بن راشد السامي ولكنه التوى بما شرطه على نفسه من ثمنهم . « فلما طالبه ابن عباس بأداء الدين قال : لو طلبت اكثر من هذا المال الى ابن عفان مامنعني اياه .

ثم احتال حتى هرب من البصرة ولحق بمعاوية . فتلقاه معاوية احسن لقاء واطمعه وارضاه حتى طمع مصقلة في ان يحمل اخاه نعيم بن هبيرة على ان يلحق به . » (1)

وهكذا نجد ابن هند يحتضن الجناة ـ الفارين من وجه العدالة ـ ويغدق عليهم العطاء من بيت مال المسلمين فيزرع بتصرفه هذا بذور فساد الاخلاق في المسلمين ويشجع الناس على الخروج على مبادىء الدين الحنيف .

ولم تقتصر نتائج ذلك الزمن الذي عاش فيه ابن أبي سفيان بل تعدته فسارت في سجل الزمن منذ مصرع الإمام حتى يومنا هذا .

لقد تمرد معاوية على الخليفة وتنكر لمبادىء الدين متظاهرا بالطلب بدم عثمان ابن عفان (2) . ومعاوية ـ كما ذكرنا هو :

ابن هند آكلة الاكباد ، وأبوه ابو سفيان : الذي حارب النبي ... ولم يسلم الا بأخرة حين لم ير من الاسلام بداً ، وحين لم يكن الا ان يختار بين الاسلام والموت ...

ولم تكن ام معاوية بأقل من أبيه تنكراً للاسلام وبغضا لاهله وحفيظة عليهم .. حتى فتحت مكة فأسلمت كارهة كما اسلم زوجها كارها . (3) .

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 127 .

(2) في حين ان ولى عثمان الذي يسوغ له المطالبة بدمه من الناحية الشرعية هو ابنة عمرو كما ذكرنا .

(3) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 2 / 61 .

وكان على معاوية ـ اذا فرضنا انه يجوز له ان يطالب بدم عثمان ـ (1) ولو انصف واخلص نفسه للحق ان يبايع كما بايع الناس .

ثم يأتي الى علي ـ مع اولياء عثمان ـ فيطالبون بالاقادة ممن قتله . ولكن معاوية لم يكن يريد ان يثأر لعثمان (2) بمقدار ما كان يريد ان يصرف الامر عن علي . وآية ذلك ان الامر استقام له ـ بعد مصرع الامام ـ فتناسى ثأر عثمان ولم يتبع قتلته ..

فالطلب بدم عثمان اذن لم يكن الا اقصوصة اشترك في صوغها كل منافس لعلي ، حاقد عليه . وقد وسع كل شيء ووصل الى كثير من الغايات الا الثأر للشيخ القتيل » .

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 2 / 301 .

(2) ليس لدى الباحث من الادلة المقنعة ما يمنعه من الاعتقاد باشتراك معاوية ـ بطريقة غير مباشرة ـ في التآمر على قتل عثمان ، فقد وهن العظم من عثمان وبلغ من الكبر عتيا . وليس من الممكن او المعقول ان تنتقل الخلافة الى معاوية دون ان يقتل عثمان ، وان بقاء عثمان سنتين او ثلاثا في الحكم ـ وتعديل سيرته السياسية ـ لم يكن في صالح معاوية واذا لم يكن معاوية قد الب الناس على الشيخ او خذلهم عن نصرته فقد تقاعس عن مساعدته في احرج الظروف ، فقد ساهم في قتله من الناحية السلبية على أسوأ الفروض . ذلك لان معاوية ، بحكم مركزه في الشام الذي استمر زهاء عشرين عاما كان هو الوالي الوحيد الذي باستطاعته انقاذ حياة ابن عفان . ويجمل بنا في هذا الصدد ، ان نذكر القارىء بالمحاورة الطريفة التي جرت بين معاوية وابي الطفيل حول تقاعس كل منهما عن نصرة عثمان . فقد سأل معاوية ابا الطفيل ـ متخابثا ـ عن تقاعسه عن نصرة الخليفة ، فأجاب هذا بأن تقاعسه كان ضمن التقاعس العام الذي ابداه المهاجرون والانصار . ثم وجه السؤال نفسه الى معاوية فأجابه بأن طلبه بدمه ـ في خلافة علي ـ نصرة له . فضحك ابو الطفيل ثم قال : انت وعثمان كما قال الشاعر :

لا الفينك بعد الموت تندبني * وفي حياتي ما زودتني زادي

وكان رأي علي في الموضوع كما يذكر ابن حجر العسقلاني (1) « أن يدخل معاوية واصحابه في الطاعة .

ثم يقوم ولي دم عثمان بن عفان فيعمل الامام معه ما فيه حكم الشريعة . » .

وقد اشار الامام علي الى ذلك في احدى رسائله الى اهل الامصار بعد صفين حين قال (2) :

« وكان بدء امرنا ان التقينا والقوم من اهل الشام والظاهر ان ربنا واحد ونبينا واحد ودعوتنا في الاسلام واحدة ... والامر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء . فقلنا تعالوا نداوي مالا يدرك باطفاء الثائرة وتسكين العامة حتى يشتد الامر ويستجمع فنقوى على وضع الحق في مواضعه .

فقالوا : بل نداويه بالمكابرة . فأبوا حتى ضجت الحرب .. فلما ضرستنا واياهم ووضعت مخالبنا فينا وفيهم اجابوا عند ذلك الى الذي دعوناهم اليه . » .

ويلوح للباحث ان الخروج على ما توطا الناس عليه من العرف والخلق كان هو القاعدة العامة للاسرة الاموية في الجاهلية والاسلام .

وكتب التاريخ العربي زاخرة بالامثلة على ذلك . وقد مر بنا ـ في فصل سابق ـ ذكر كثير من الشواهد والامثلة في هذا الباب عندما تظاهر رؤوس الامويين في الانضواء تحت لواء الاسلام .

أما في الجاهلية فيجد الباحث :

على الرغم من قلة الاخبار الموثوقة عن سيرتهم ـ قصصا ممتعة في هذا المضمار . من ذلك مثلا ماذكره ابن الاثير (1) حين قال :

« كان لعبد المطلب جار يهودي يقال له : أذينة : يتجر وله مال كثير . فغاظ ذلك

---

(1) الاصابة في تمييز الصحابة 2 / 501 ، 502 .

(2) شرح نهج البلاغة 4 / 161 ، 162 .

(3) الكامل في التاريخ 2 / 9 .

حرب بن امية .. فأغرى به فتيانا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله . فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن حرب بن عمرو بن كعب التيمي جد ابي بكر » .

وتتلخص حركة القاسطين ـ من حيث وقوع حوادثها من الناحية التاريخية ـ على الشكل التالي (1) :

« لما عاد علي الى البصرة بعد فراغه من الجمل قصد الكوفة ... وبعث جرير بن عبد الله البجلي ... وكتب معه كتابا الى معاوية يدعوه فيه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار من طاعته ، فسار جرير الى معاوية .

فلما قدم عليه ماطله معاوية واستنظره ، واستشار عمرو بن العاص فأشار عليه ان يجمع اهل الشام ويلزم عليا دم عثمان ويقاتله بهم . ففعل معاوية ذلك . وكان اهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان ـ الذي قتل فيه

ـ مخضوبا بالدم ..

وضع معاوية القميص مدة وهو على المنبر . واقسموا الا يمسهم الماء للغسيل من الجنابة والا يناموا على الفراش حتى يقتلوا : قتلة عثمان ، ومن قام دونهم قتلوه .

فلما عاد جرير الى علي واخبره خبر معاوية واجتماع اهل الشام على قتاله . خرج علي فعسكر بالنخيلة .. وسرح الاشتر ببعض الجند امامه .. وقال له :

اياك ان تبدأ القوم بقتال : ولاتدن منهم دنو من يريد ان ينشب الحرب ، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس . حتى اقدم عليك ..

واصبح علي على غدوة الاشتر ..

وكان معاوية قد سبق .. فأخذ شريعة الفرات .. فطلب اصحاب علي شريعة غيرها فلم يجدوا . فأتوا عليا فأخبروه بعطشهم .. فدعا صعصعة بن صوحان . فأرسله الى معاوية يقول له :

---

(1) ابن الأثير : « الكامل في التاريخ » 3 / 141 - 160 .

انا سرنا سيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الاعتذار اليكم . فقدمت لنا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل ان نقاتلك ، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . وهذه اخرى قد فعلتموها ، منعتم الناس عن الماء .. فأبعث الى اصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ... لننظر فيما بيننا وبينك ، وفيما قدمنا له ..

فأصر معاوية واصحابه على المنع ..

فلما علم علي بذلك قال :

قاتلوهم على الماء ... فقاتلوهم حتى خلوا بينهم وبين الماء .

وصار الماء في ايدي اصحاب علي ، فقالوا :

والله لاتسقيه اهل الشام ، فأرسل علي الى اصحابه ان خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم ..

ثم ان عليا دعا أبا عمر وبشير بن عمرو بن محصن الانصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشبث بن ربعي التميمي فقال لهم : ائتوا هذا الرجل وادعوه الى الله والى الطاعة والجماعة ... فأتوه .. فبتدأ بشير ... وقال يامعاوية :

انشدك الله ان تفرق هذه الامة وتسفك دماءها بينها ..

فقطع معاوية عليه الكلام وقال :

ونترك دم عثمان ؟ والله لا افعل ذلك ابداً . فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعي ... فقال : يامعاوية .

والله لايخفى علينا ما تطلب ، انك لم تجد شيئا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم الا قولك قد قتل امامك مظلوما ، فنحن نطالب بدمه .. وقد علمنا انك ابطأت عنه بالنصر واحببت له القتل لهذه المنزلة التي اصبحت تطلب .

فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الامر اهله ، قال معاوية :

ان اول ماعرفت به سفهك ... ان قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه ، ثم ... كذبت ولؤمت ايها

(161)

انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم الا السيف .. فأتوا عليا فأخبروه بذلك .. فجرت مناوشات بالسلاح بين الفريقين بدأها أهل الشام في اوخر عام 36 هـ .

ثم دخلت سنة 37 هـ وفيها جرت موادعة بين علي ومعاوية ، توادعا على ترك الحرب بينهما حتى ينقضى المحرم طمعاً في الصلح .

واختلف بينهما الرسل .. فلم يسفر ذلك عن شيء .. فلما انسلخ المحرم .. خرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبثان الناس .. وعلي يقول لاصحابه :

لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فأنتم على حجة وتركهم قتالهم حجة اخرى ، فاذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولاتجهزوا على جريح ، ولاتكشفوا عن عورة ، ولاتمثلوا بقتيل .

ولاتهتكوا ستراً ، ولاتدخلوا داراً ، ولاتأخذوا شيئاً ، ولاتهيجوا امرأة وان شتمن اعراضكم وسبين امراءكم وصلحاءكم .

وكان علي يقول بهذا المعنى لاصحابه في كل مكان » .

ذلك مايتصل بالمرحلة التمهيدية لحرب صفين قبل ان ينشب القتال بين الطرفين ، ونحسب ان القارىء قد لاحظ معنا جملة أمور :

منها : سعى الامام الى دعوة ابن ابي سفيان ـ بالطرق السليمة المألوفة ـ الى عدم شقه عصا الطاعة على النظام ، واحداث الفتنة بين المسلمين ، ليتسنى للخليفة ـ بعد ذلك ـ ان ينظر في الطلب الذي يقدمه له عمرو بن عثمان بن عفان ـ ولى عثمان حسب منطوق الآية التي ذكرناها ـ بشأن المتهمين بقتل عثمان كي يجري التحقيق اللازم ويتخذ الاجراءات القانونية بحق الجناة .

ولكن معاوية ألب الناس على الامام واتخذ قميص عثمان ستاراً للخروج على النظام ؛ وسار بجيوشه متمرداً باغيا يريد العراق . واستولى على ماء الفرات في موقع تجمع الجيشين ومنع اصحاب الامام الذين لم يخرجوا لقتاله بل للتفاوض معه عساه يثوب الى رشده فيحقن دماء المسلمين .

(162)

فاضطر الامام الى دعوة اصحابه لقتالهم على الماء فقط ، بعد ان فشلت مساعي صعصعة ابن صوحان كما رأينا ، وبعد أن بلغ العطش بأصحابه حداً لا يطاق .

وعندما اصبح الماء بحوزة اصحابه امرهم بالسماح لخصومه بالاستقساء .

ولم يثنه غدر ابن ابي سفيان وامشاجه ـ وخروجهم متمردين من الشام ، وابتداؤهم اصحابه بالقتال وحجزهم الماء عنهم ـ عن مواصلة مساعيه السلمية .

فأرسل بشير الانصاري ، وسعيد الهمداني ، وشبث التميمي ، لمفاوضة معاوية واقناعه بالانصياع الى اوامر الله وسنة الرسول .

فأغلظ معاوية لهم القول وشتمهم وطردهم بعد ان حاول ان يوقع ـ بين سعيد ، وشبث ـ العداوة والبغضاء باثارة العصبية الجاهلية التي حاربها الاسلام . فأبى معاوية الا الاستمرار في الطيش والعبث بأرواح الناس ومقدراتهم والاستهانة بمبادىء الدين الحنيف .

فحدث القتال المرير بين الجانبين وانهزمت قوى الشر امام جيوش الامام . فلجأ معاوية الى الحيلة والغدر ـ كعادته ـ فرفعت المصاحف وحصل التحكيم وخرج المارقون واغتيل الامام كما سنرى .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول مرة اخرى :

ان الصراع بين القاسطين وبين قوى الامام ماهو ـ في جوهره ـ الا صراع بين رجلين يختلفان ـ كل الاختلاف ـ في الخلق وفي العقيدة . فمعاوية : « رجل لم يردعه وازع عن التماس اي اسلوب ... مشروع او غير مشروع للوصول الى هدفه وهو انتزاع الحكم من الامام ـ ولم ير حرجا في الدس ، ولافي الغدر ولافي الادعاء الباطل .

فقد كان همه ان يغدر وان وطئت قدمه الملوثة قدس الحق وقيم الاخلاق .

وكانت الخطة التي درج عليها الامام تغاير ذلك .

لهذا فقد تباينت الاسلحة . فهي في يد علي معدومة وفي يد خصمه وفيرة ، وتعددت ميادينها امام معاوية وضاقت حلقتها على الامام ـ الا ما أقره منها الدين وارتضته المثل

الانسانية الرفيعة » (1) .

وتباين المقربون كذلك في الخلق والدين والهدف . فهم عند علي من خيرة اصحاب النبي وهدفهم السير وفق مستلزمات الاسلام . وهم ـ عند معاوية ـ من الوصوليين الانتهازيين :

عمار بن ياسر ومن هم على شاكلته من جهة ، وعمرو بن العاص ومن لف لفه من جهة اخرى .

وتباين الاتباع كذلك . فقد كان معاوية يحارب الامام « بمئة الف ما فيهم ـ على حد قوله ـ من يفرق بين الناقة والجمل » (2) .

وقد بلغت طاعة اهل الشام لمعاوية حداً يفوق الوصف (3) .

فقد صلى بهم على ما يذكر المسعودي ـ عند مسيرهم الى صفين ـ الجمعة : يوم الاربعاء ، واعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها » .

وفي معرض التحدث عن موقف اهل الشام ازاء معاوية .

يقول المسعودي (4) : ان احد اخوته من اهل العلم قال له : « كنا نقعد فنتناظر في ابي بكر وعمر ، وعلي ومعاوية ، فقالت لي ذات يوم بعض اهل الشام ـ وكان من اعقلهم . واكبرهم لحية ـ كم تظنون في علي ومعاوية ؟

فقلت له : من هو علي ؟ فقال ... قتل علي في غزوة حنين مع النبي .

ولما خرج عبد الله بن علي في طلب مروان الى الشام ... وجه الى ابي العباس السفاح اشياخا من اهل الشام من ارباب

النعم والرئاسة ، فحلفوا للسفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني امية حتى وليتم الخلافة »

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود : « الامام علي بن ابي طالب » 5 / 66 ، 67 .

(2) عباس محمود العقاد : « عبقرية الامام » ص 50 .

(3) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر 2 / 334 .

(4) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر 2 / 51 .

وكان ذلك دون شك من آثار معاوية في تضليل الناس والتغرير بهم . فيكون معاوية ـ بالاضافة الى ما ذكرنا ـ مسئولا عن تشويه كثير من حقائق التاريخ الاسلامي وتزوير حوادثه .

أما أساليبه في الغدر بمناوئيه وتدبير المؤمرات لاغتيالهم فمعروفة لدى الكثيرين ، فقد دبر قضية سم الاشتر والحسن ، بعد ان نكث عهده .

وتتلخص قضية الاشتر النخعي في ان الامام عليا قد ولاه مصر بعد ان عزل عنها محمد بن ابي بكر . « ولكن الاشتر لم يكد يصل الى القلزم حتى مات » .

واكثر المؤرخين يتحدثون بأن معاوية اغوى صاحب الخراج في القلزم ... ان هو احتال في موت الاشتر ، فدس هذا الرجل للاشتر سما في شربة من عسل فقتله ليومه .

وكان معاوية وعمرو يتحدثان فيقولان ان لله جنودا من عسل » (1) ، وكان غدره يتراوح بين الشدة واللين حسب الظروف ، فيلجأ الى القسوة اذا اعيته الحيلة والمراوغة والدس ، من ذلك مثلا :

انه اختار بسر بن ارطأة المعروف بقساوته ، وسيره على رأس جيش لتعقب خصومه .

وقد اوصى معاوية بسر بن ارطأة أن يقسو على البادية من شيعة علي .

فمضى بسر ونفذ وصية معاوية واضاف لها من عنده قسوة وغلظة واسرافاً في الاستخفاف بالدماء ، والاموال ، والحقوق والحرمات ، فكان كثير الفتك في البادية ، وجاء المدينة فروع اهلها ... وامرهم بالبيعة لمعاوية ففعلوا مرغمين .

ومضى الى اليمن ففر عنها عامل علي واعوانه .

ونشر فيها الروع بالاسراف في القتل ، ثم اخذ البيعة لمعاوية .

وبلغ خبره علياً فأرسل جارية بن قدامة ليرده عن اليمن ، ففر عنها بسر بن ارطأة ورجع الى الشام مفسداً في الارض اثناء رجوعه ومسرفاً في القتل والنهب حتى ذبح ابنى عبيد الله بن العباس وكانا صبيين .

---

(1) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 131 .

ورد جارية اليمن الى طاعة الامام ، وعاد الى مكة فعرف فيها ان عليا قد قتل » (1) .

يتضح مما ذكرنا ان خلق معاوية كان اقرب الى الوحشية منه الى الانسانية ، على انه كان في ـ وحشيته الخلقية ـ كالوحش المفترس تارة ، وكالثعلب المراوغ تارة اخرى اما الامام فكان انسانا كاملا في دينه ، وسياسته واخلاقه ، فقد امتلأت نفسه الكبيرة من خشية الله ، وحب الناس ، ونشر العدالة والاخاء بين المسلمين .

وكان موقف اتباعه منه ـ على حقه ـ مغايراً لموقف اتباع معاوية له على باطله كما رأينا .

والى القارىء طائفة من اقوال الامام لاتباعه وهو في احرج ساعات نزاعه مع مناوئيه : « أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لانهم اولى بالحق منكم ولكن لاسراعهم الى باطلهم وابطائكم عن حقي .

ولقد اصبحت الامم تخاف ظلم رعاتها ، واصبحت اخاف ظلم رعيتي .

أيها الشاهدة ابدانهم الغائبة عنهم عقولهم ، المختلفة اهواؤهم المبتلى بهم امراؤهم ، صاحبكم : يطيع الله وانتم تعصونه ، وصاحب اهل الشام : يعصى الله وهم يطيعونه

والله لكأني بكم فيما اخالكم ان لو حمس الوغى وحمى الضرب قد انفرجتم عن ابن ابي طالب انفراج المرأة عن قبلها ، واني لعلي بينة من ربي ، ومنهاج من نبي ، واني لعلى الطريق الواضح القطه لقطاً » (2) ، وقال في مكان آخر : « ولكن بمن والى من ! أريد ان اداوي بكم وانتم دائي » كناقش الشوكة بالشوكة

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى علي وبنوه » ص 150 .

(2) « شرح نهج البلاغة » لابن ابي الحديد 2 / 182 - 185 .

(حمس الوغى . اشتد وعظم . الوغى في الاصل : الاصوات والجلبة ، وسميت الحرب نفسها وغى لما فيها من ذلك . وانفراج المرأة عن قبلها أي وقت الولادة . وقوله القطه لقطا يريد ان الضلال غالب على الهدى وأنه التقط طريقه من ههنا وههنا كما يسلك الانسان طريقاً دقيقة قد اكتنفها الشوك والعوسج من جانبيها كليهما فهو يلتقط النهج التقاطا).

وهو يعلم ان ضلعها معها » (1) وأشار الامام ـ في مناسبة اخرى ـ الى العامل الرئيسي في تقاعسهم عن نصرة الحق فقال : « أتأمرونني ان أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ ؟

والله لا اطور به ما سمر سمير ... ولو كان المال لي لسويت بينكم فكيف وانما المال مال الله ؟ ؟ وان اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله » (2) .

وخاطب اتباعه ـ في موقع آخر ـ فقال :

« أيتها النفوس المختلفة ، الشاهدة ابدانهم والغائبة عنهم عقولهم ، اظأركم على الحق وانتم تنفرون منه ، هيهات ان اطلع بكم سرار العدل ، او اقيم اعوجاج الحق ؟ ؟

اللهم انت تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ، ولا التماس شيء من فضول الحطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الاصلاح في بلادك » ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من سننك » (3) .

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » ص 261 ، 262 .

ولكن بمن كنت اعمل ذلك والى من اخلد في فعله .. واما الحاضرون لنصرتي فأنتم وحالكم معلومة في الخلاف والشقاق والعصيان .

واما الغائبون من شيعتي ـ كأهل البلاد النائية ـ فالى ان يصلوا قد بلغ العدو غرضه مني ولم يبق من اخلد اليه في اصلاح الامر وابرام هذا الرأي ... الا اذا استعين ببعضكم على بعض فأكون كناقش الشوكة بالشوكة .

يقول : لا تستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة مثلها فان احداهما في القوة والضعف كالاخرى . فكما ان الاولى انكسرت لما وطئتها فدخلت في لحمك فالثانية ـ اذا حاولت استخراج الاولى بها ـ تنكسر في لحمك .

(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 2 / 305 .

(3) المصدر نفسه 378 ، 379 أظأركم : اعطفكم .. والسرار آخر ليلة في الشهر وتكون مظلمة ، ويمكن عندي : ان يفسر على وجه آخر وهو : ان يكون السرار ههنا بمعنى السرر ، وهي : خطوط مضيئة في الجبهة .. فيكون معنى الكلام هيهات ان تلمع بكم لوامع العدل ، وتتجلى اوضاعه ، ويبرق وجهه وهو يمكن ان يكون فيه ايضا وجه =

وخاطبهم في موقف آخر فقال : « لم تكن بيعتكم اياي فلتة (1) ؛ وليس امري وامركم واحداً ، اني اريدكم لله وانتم تريدونني لانفسكم .

ايها الناس اعينوني على انفسكم ، وايم الله لانصفن المظلوم من ظالمه ، ولاقودن الظالم بخزامته حتى اورده منهل الحق وان كان كارها » (2) .

* * *

= آخر وهو ان ينصب سرار ههنا على الظرفية ويكون التقدير : هيهات ان اطلع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه فيكون قد حذف المفعول به .
(1) الفلتة : الامر يقع في غير تدبر ولا روية . وفي الكلام تعريض ببيعة ابي بكر لان المشهور عن عمر انه قال : « ان بيعة ابي بكر فلتة وقانا الله شرها » .
(2) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 2 / 403 .

التحكيم ، المارقون ، ومصرع الامام

لقد حاول علي ـ جهد استطاعته ـ ان يتجنب الحرب التي سعى معاوية ما امكنه ـ الى اشعال نارها . كما حاول عبثا ـ اقناع معاوية وصحبه بالكف عن ايذائه وايذاء رعاياه . فأوكل ـ مضطراً ـ أمره الى السيف . فبدأت الحرب بين الجانبين .

« ولما رأى عمرو بن العاص أن أمر العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية : هل لك في أمر اعرضه عليك لايزيدنا الا اجتماعا ولايزيدهم الا فرقة ؟

قال : نعم .

قال : نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها بيننا وبينكم .

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم . فلما رآها الناس قالوا : نجيب كتاب الله . فقال لهم علي : عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم . فان معاوية وعمرو وابن ابي معيط ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن .

أنا اعرف منكم بهم قد صحبتهم اطفالا ثم رجالا . ويحكم ما رفعوها الا خديعة .

فقال اصحابه : لا يسعنا ان ندعي الى كتاب الله فنأبى ان نقبله . فقال لهم علي : انما اقاتلهم ليدينوا لحكم كتاب الله . فانهم قد عصوا الله فيما امرهم . فأصر اصحابه الا وقف القتال وقبول التحكيم .

واقترح اصحاب معاوية ان يبعث كل فريق من يمثله على ان يعمل الحكمان بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم يتبع الفريقان ما اتفق عليه الحكمان ، فاختار اهل الشام عمرو ، وبعض اهل العراق ابا موسى الاشعري .

فقال علي لقومه : قد عصيتموني في أول الامر ـ فأوقفتم القتال ـ فلا تعصوني الآن .

اني لا ارى ان اولي ابا موسى . فانه ليس بثقة . قد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب مني . فأبوا الا ابا موسى .

فقال : فاصنعوا ما اردتم .. فكتب كتاب التحكيم :

هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان .

اننا ننزل عند حكم الله وكتابه .. فما وجد الحكمان في كتاب الله عملا به ، وما لم يجداه .. فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة .

وأخذ الحكمان ؛ من علي ، ومعاوية ، ومن الجندين ، من العهد والمواثيق انهما آمنان واهليهما والامة » (1) .

وشهد على مافي الكتاب من اصحاب علي :

« الحسن والحسين ابنا علي بن ابي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن جعفر بن ابي طالب ، والاشعث بن

قيس ، والاشتر بن الحارث ، وسعيد ابن قيس ، والحسين والطفيل ابنا الحارث بن عبد المطلب وابو سعيد بن ربيعة الانصاري وعبد الله بن خباب ابن ارت وسهل بن حنيف ، وابو بشر بن عمر الانصاري وعون بن الحارث بن عبد المطلب ، ويزيد بن عبد الله الاسلمي ، وعقبة ابن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الانصاري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، والنعمان بن العجلان الانصاري ، وحجر بن عدي الكندي ، ويزيد بن حجية النكري ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، والحارث بن مالك ، وحجر بن يزيد ، وعلبة بن حجية .

ومن اهل الشام : حبيب بن مسلمة ، وابو الاعور السلمي ، وبسر بن ارطأة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحارث ، ومسلم بن السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحمزة بن مالك ، وسبيع بن يزيد الحضرمي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن يزيد الكلبي ، وخالد بن الحصين

---

(1) ابن الاثير : « الكامل في التاريخ » 3 / 160 - 168 .

السكسكي ، وعلقمة بن يزيد الحضرمي ، ويزيد بن ايجر العيسى ، ومسروق بن جبلة العكي ، وبسر بن ابي يزيد الحميري ، وعبد الله بن عامر القرشي ، وعتبة بن ابي سفيان ، ومحمد بن ابي سفيان ، ومحمد بن عمرو بن العاص ، وعمار بن الاحرص الكلبي ، ومسعدة بن عمرو العتبي ، والصباح بن جهلمة الحميري ، وعبد الرحمن بن ذى الكلام ، وتمامة بن حوشب ، وعلقمة بن حكم » (1) .

ثم اتفق علي ومعاوية على ما يذكر الدينوري (2) « على ان يكون مجتمع الحكمين بدومة الجندل ـ وهو المنصف بين العراق والشام . ووجه علي مع ابي موسى شريح بن هانىء في اربعة الاف من خاصته وصير عبد الله بن عباس على صلاتهم وبعث معاوية عمرو بن العاص وابا الاعور السلمي في مثل ذلك من اهل الشام .

فساروا من صفين حتى وافوا دومة الجندل . وانصرف على بأصحابه حتى وافى الكوفة (3) ، وانصرف معاوية بأصحابه حتى وافى دمشق ، ينتظران ما يكون من امر الحكمين .

وكان علي اذا كتب الى ابن عباس في امر اجتمع اليه اصحابه فقالوا : ماكتب اليك امير المؤمنين ؟ .. وتأتي كتب معاوية الى عمرو بن العاص فلا يأتيه أحد من اصحابه يسأله عن شيء من امره .. وعندما اجتمع الحكمان وتداولا في الامر (4) . قال عمرو لابي موسى . وأين انت من معاوية ؟ قال ابو موسى :

ما معاوية موضعا لها .. قال عمرو : الست تعلم ان عثمان قتل مظلوماً ؟ قال بلى .

---

(1) الدينوري ، « الاخبار الطوال » ص 198 ، 199 .

(2) الاخبار الطوال : ص 200 ـ 203 .

(3) فامتنع الذين اصروا على وقف القتال ، وقبلوا التحكيم من اصحاب الامام من دخول الكوفة مع الامام ، فيكون منهم المارقون الذي ارغموا الامام ـ بعد ذلك ـ على حربهم بالنهروان .

(4) واوحى عمرو الى رفيقه : ان موضوع خلع على من الخلافة قد بات مفروغاً منه ، وان المشكلة هي اتفاقهما على من سيخلفه .

قال : فان معاوية وليّ عثمان .. قال ابو موسى : ان ولى عثمان ابنه عمرو . ولكن ان طاوعتني احيينا سنة عمر بن الخطاب وذكره بتوليتنا ابنه عبد الله ..

هلم نجعلها للطيب ابن الطيب . قال عمرو :

ياابا موسى لايصلح لهذا الامر الا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر .

قال ابو موسى : ارى ان نخلع هذين الرجلين ـ علياً ومعاوية ـ ثم نجعلها شورى بين المسلمين يختارون لانفسهم من احبوا .

قال عمرو : فقد رضيت بذلك ، وهذا الرأي الذي فيه صلاح الناس » .

كان ابو موسى قد عوده عمرو ان يتقدم في الكلام عليه .

وكثيراً ما كان عمرو يقول له : « أنت صاحب رسول الله واسن مني فتكلم واتكلم ، وتعود ذلك ابو موسى ، واراد عمرو بذلك ان يقدمه في خلع علي .

فلما اتفقا على خلع علي ومعاوية .. اقبلا الى الناس وهم مجتمعون . فقال عمرو :

ياابا موسى اعلمهم ان رأينا اتفق ، فتكلم ابو موسى فقال :

ان رأينا اتفق على امر نرجو ان يصلح الله به امر هذه الامة .

فقال عمرو : صدق وبر . تقدم ياابا موسى فتكلم فتقدم ابو موسى ليتكلم فقال ابن عباس : ويحك اني والله لاظنه قد خدعك ، ان كنتما قد اتفقتما على رأي فقدمه ليتكلم به قبلك ، ثم تكلم بعده ، فانه رجل غادر ولا آمن ان يكون قد اعطاك الرضا بينكما . فاذا قدمت في الناس خالفك .

وكان ابو موسى مغفلا فقال : انا قد اتفقا وقال : ايها الناس انا قد نظرنا في امر هذه الامة فلم نر اصلح لامرها ولا الم لشعثها .. الا ان نخلع عليا ومعاوية ، ويولي الناس امرهم من احبوا .. واني قد خلعت عليا ومعاوية ..

ثم تنحى واقبل عمرو فقام وقال : ان هذا قد قال ماسمعتموه وخلع صاحبه . وانا اخلع صاحبه كما خلعه ؛ واثبت صاحبي معاوية فانه وليّ ابن عثمان والطالب بدمه واحق الناس بمقامه .

قال ابو موسى الاشعري لعمرو : لاوفقك الله غدوت وفجرت .

انما مثلك كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث ، قال عمرو :

ان مثلك كمثل الحمار يحمل اسفاراً .. والتمس اهل الشام ابا موسى فهرب الى مكة .

ثم انصرف عمرو واهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة » (1) .

يتضح مما ذكرنا : ان رفع المصاحف حيلة دبرها عمرو بن العاص للحيلولة بين القاسطين وبين الفرار امام جيوش الامام .

وقد فطن الامام الى ذلك ووصف عمرو معاوية وابن ابي معيط بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن .

وقد مر بنا ذكر شيء من سيرة معاوية وابن ابي معيط ، ونود في هذه المناسبة ـ ان ننقل الى القارىء قبل الاسترسال

في موضوع التحكيم ـ طرفاً من سيرة عمرو بن العاص ليتبين الاسس التي استند اليها علي في وصمه عمرواً وصاحبيه بالبعد عن الدين والقرآن ، وعمرو هو : ابن العاص السهمي الذي « كان من المستهزئين بالنبي .

وقد انزل الله فيه قول : ان شانئك هو الابتر » (2) .

أما المستهزؤون الآخرون فقد ذكرهم ابن خلدون (3) بقوله :

« ولما رأت قريش النبي قد امتنع بعمه وعشيرته ، وانهم لايسلمونه ، طفقوا يرمونه ـ عند الناس ممن يفد على مكة ـ بالسحر والكهانة والجنون والشعر ، يرومون بذلك صدهم عن الدخول في دينه ثم انتدب جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والايذاء ، منهم :

عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وعقبة بن ابي معيط ـ احد المستهزئين .

وابو سفيان من المسهتزئين ، والحكم بن امية من المستهزئين ايضاً .

---

(1) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » 3 / 160 - 168 .

(2) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » 2 / 49 ، 50 .

(3) ابن خلدون « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » 2 / 177 .

والعاص بن وائل السهمي وابنا عمه : نبيه ومنبه .

وقاموا يستهزئون بالنبي ويتعرضون له بالاستهزاء والاذاية حتى لقد كان بعضهم ينال منه بيده » . اما ام عمرو بن العاص « فثمة صحيفة من صحائف فجور الجاهلية تنتشر عن الباغية ام عمرو كامرأة تلقفتها آونة مضاجع الرجال .

فلما خرج ابنها الى النور تهامست الالسن عن ابيه وتاهت حقيقة نسبة بين بضعة نفر .. منهم العاص ومنهم ابو سفيان . ولكن الام حزمت امرها على ان تلصق وليدها بأول الرفيقين اذ كان اوفر النفر ثروة واسخاهم عليها في الانفاق فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها اول مثل في تغليب المادة على اوثق العلاقات وانه لمبدأ رضعه من ثدييها وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد » (1) .

هذا هو البيت الذي نشأ فيه عمرو بن العاص .

أما مواقف عمرو نفسه من الاسلام ـ في اوائل عهده ـ فمعروفة لدى الكثيرين .

فقد كان اشد الكفار خصومة للنبي يوم احد .

ويحضرنا ـ في هذه المناسبة ـ بعض شعره :

لما رأيت الحرب ينزو شرها بالرضف نزوا
ايقنت أن الـموت حق والحياة تكون لغوا
حملت أثوابي على عُنَّد يبذ الخيل رهوا (2)

ولما يئس عمرو من الانتصار على النبي في الحرب لجأ الى الغدر والدس والتواري عن الانظار . قال عمرو ، على ما يذكر ابن هشام (3) :

« لما انصرفنا من الاحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني . فقلت لهم : اني ارى أمر محمد يعلو الامور علواً

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود « الامام علي بن ابي طالب » 2 / 275 .

(2) ابن هشام « سيرة النبي محمد » 3 / 116 . ينزو : يرتفع ويثب . وارضف الحجارة المحماة بالثار ، العتد : الفرس الشديد ، يبذ : يسبق ، والرهو : الساكن ، اللين .

(3) سيرة النبي محمد : 2 / 177 .

منكراً .. فأرى ان نلحق بالنجاشي فنكون عنده . فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فانا ان نكون تحت يديه احب الينا ان نكون تحت يدي محمد .

وان ظهر قومنا : فنحن من عرفوا . »

وقد كان عمرو ـ كما رأينا ـ من أكبر المؤلبين على عثمان .

وهو الذي صرفه عن تطبيق حد الله في عبيد الله بن عمر بن الخطاب لقتله الهرمزان .

« فقد اقبل ابن العاص على عثمان ـ حين رأى عثمان أن ينظر في الاقتصاص من عبيد الله ...

فقال له : يا أمير المؤمنين ان الله قد اعفاك ان يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . انما كان الحدث ولاسلطان لك » (1) .

ولما بلغ عمرو ـ وهو بفلسطين كما ذكرنا ـ بأن الناس قد بايعوا عليا بأن معاوية يأبى البيعة اتصل عمرو بمعاوية وحبذ له فكرة المطالبة بدم عثمان .

ومن الطريف ان نذكر ـ في هذه المناسبة ـ : ان المؤرخين يكادون يجمعون على ذكر قصة استشارة عمرو لولديه عبد الرحمن ومحمد ، وهو بفلسطين ـ في شأن موقفه من النزاع بين علي ومعاوية « فقال له عبد الله : ان كنت لابد فاعلا فالى علي . قال عمرو : اني ان اتيت علياً يقول لي : انما انت رجل من المسلمين . وان اتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في الامر . وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأي .

فقال لهما عمرو : اما انت ياعبد الله فقد اخترت لآخرتي .

واما انت يامحمد فقد اخترت لدنياي .. وقدم عمرو على معاوية .. وسأله اترى اننا خالفنا عليا لفضل منا عليه ؟ .. لا والله ان هي الا الدنيا نتكالب عليها » (2) .

---

(1) عبد الفتاح عبد المقصود الامام علي بن ابي طالب 4 / 83 ، واذا كان الامر كذلك فقد قتل عثمان وليس لعلي سلطان على الناس فلماذا اقام عمرو الدنيا عليه واقعدها .

(2) عباس محمود العقاد « معاوية بن ابي سفيان » ص 53 - 55 .

ولاندري ما صلة ذلك بالمطالبة بدم عثمان !!

هذا هو ممثل معاوية في التحكيم .

أما ممثل علي فهو ابو موسى الاشعري الذي كان يخذل الناس عن نصرة الخليفة حين كان واليا له على الكوفة الامر الذي اضطر الخليفة الى عزله .

ولنعد الآن الى موضوع التحكيم .

فاذا نظرنا اليه من الناحية المبدئية العامة ـ اي تحكيم كتاب الله وسيرة نبيه فيما يحصل من اختلاف بين وجهات نظر المسلمين في امورهم الدينية ، والدنيوية ـ فان الامام علي لا يرضى بغير ذلك بديلاً .

وقد بنى سياسته العامة ـ في السلم والحرب ومع انصاره واعدائه على السواء ـ وفق مستلزمات القرآن والسنة . وتألب عليه خصومه ـ وهرب منه بعض انصاره ـ لتمسكه بذلك في جميع تصرفاته . وقد مر بنا رفضه ـ قبول الخلافة اثناء الشورى ـ لوضع شرط ثالث بجانب الكتاب والسنة . كما مر بنا جانب من موقفه مع الناكثين ودعوته اياهم الى تحكيم الكتاب والسنة فيما خرجوا عليه ، فلم يعترض الامام « اذن » على التحكيم الذي دعا اليه معاوية واصحابه ـ من حيث المبدأ .

وانما اعترض على الشكل الذي جاء فيه والظروف التي احاطت به .

فقد رفع خصومه المصاحف على الرماح في الوقت الذي كانت فيه جيوشه سائرة الى نصرها المبين .

ودعوا (كاذبين) الى تحكيم القرآن الذي حاربوا ، وحاربوا من انزل عليه في الجاهلية والاسلام .

واخترقوا نصوصه (وسنة الرسول) في تصرفاتهم العامة من الناحيتين الدينية والدنيوية .

فقد امر معاوية ـ باقتراح من ابن العاص كما ذكرنا ـ اصحابه ان يربطوا المصاحف على اطراف القنا ، فربطت المصاحف .

واول ما ربط مصحف دمشق الاعظم ، ربط على خمسة ارماح يحملها خمسة رجال .

ثم ربطوا سائر المصاحف ، جميع ما كان معهم . واقبلوا في الغلس (1) . ونظر اهل العراق الى اهل الشام قد اقبلوا وامامهم شيبه بالرايات ، فلم يدروا ما هو حتى اضاء الصبح ، فنظروا فاذا هي المصاحف . واقبل ابو الاعور السلمي على برذون (2) اشهب وعلى رأسه مصحف وهو ينادي :

يا أهل العراق هذا كتاب الله حكماً فيما بيننا وبينكم .

فتكلم علي وقال :

عباد الله انا احرى من اجاب الى كتاب الله ... ان القوم ليسوا يريدون بذلك الا المكر ، وقد عضتهم الحرب ، والله لقد رفعوها وما رأيهم العمل بها . وليس يسعني ـ مع ذلك ـ ان ادعى الى كتاب الله فلا اجيب . وكيف ! وانما قاتلتهم ليدينوا بحكمه ! » (3) .

وعندما وقف القتال ، وانصاع القاسطون ـ في الظاهر ـ الى رأي الامام في تحكيم القرآن والسنة لحسم النزاع بين

المعسكرين .

وافق الامام على قبول التحكيم ـ التحكيم الذي هو مبدؤه في تصرفاته كافة ـ استمع اليه يخاطب ابن ابي سفيان : ان البغي والزور يوقعان بالمرء في دينه ودنياه ... ويبديان خلله عند من يعيبه . قد علمت انك غير مدرك ما قضى فواته .

وقد رام اقوام امراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم ... وقد دعوتنا الى حكم لقرآن ولست من اهله . ولسنا اياك اجبنا ولكننا اجبنا القرآن في حكمه » (4) .

وخاطبه ـ في موضع آخر ـ فقال : « لقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي . فجعل

---

(1) الغلس : بعد العشاء الآخرة وقبل الفجر « الناشر » .

(2) البرذون ، صنف من الخيل الغير العربية « الناشر » .

(3) الدينوري : « الاخبار الطوال » ص 191 ، 192 .

(4) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 113 ، 114 .

أحدنا حجة على الآخر . فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني ، وعصيته انت واهل الشام بي . والب عالمكم جاهلكم وقائمكم قاعدكم » (1) فالامام اذن لم يعترض على مبدأ التحكيم .

بل التحكيم بالشكل الذي دعاه اليه معاوية والظروف التي حصل فيها . وبعد ان زالت تلك الظروف ووضعت الحرب اوزارها اختفت عوامل ممانعة الامام بقوله .

غير ان الامام اعترض ـ بعد ذلك ـ على تعيين بعض اصحابه ابا موسى الاشعري ليمثله في ذلك .

وقد كان اعتراض الامام مبنياً ـ من حيث الاساس ـ على القول بأن الممثل يجب ان يتبنى فكرة من يمثله ـ بغض النظر عن سلامتها ـ ليتسنى له القيام بواجبه على وجهه الاتم . فعمرو بن العاص خير من يمثل معاوية في هذه الناحية .

فلما اصر اصحاب الخليفة على رأيهم في تعيين ابى موسى رجع الامام الى نفسه ـ على مايبدو ـ وقلب الامر على وجوهه فلم ير بأسا من الموافقة على ذلك لان موضوع التحكيم سوف يسير ـ حسبما اتفق الجانبان المتعاقدان ـ على نصوص القرآن وسنة النبي حيث ينكشف لابي موسى زيفه السابق في التخذيل عن الامام .

وما دام موضوع التحكيم ـ برأي الامام ـ منصبا على حسم الخلاف بينه وبين معاوية ـ وهو نزاع يتصل ـ على ما ادعى معاوية ـ بالمطالبة بدم الخليفة القتيل ، فسوف ينظر الحكمان ـ في القرآن والسنة ـ فيما اذا كان عثمان قد قتل مظلوماً من جهة ؟

وفيما اذا كان لمعاوية الحق في المطالبة بدم عثمان من الناحية الشرعية ـ اي انه ولى عثمان ـ من جهة ثانية ؟

وفيما اذا كان الاسلوب الذي اتبعه معاوية للمطالبة المذكورة ـ في حالة شرعيتها ـ هو الاسلوب السليم من جهة ثالثة ؟

وفيما ينبغي للخليفة ان يفعله من جهة رابعة ؟

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 160 والاشارة هنا الى مقتل عثمان .

فاطمأن علي الى ذلك كل الاطمئنان .

غير أن اجتماع الحكمين قد جعل الموضوع يسير باتجاه آخر لا صلة له اطلاقاً بموضوع المطالبة بدم عثمان ابن عفان .

فأغفل عمرو صاحبه ابتداءً ـ كما رأينا .

والقى في روعه ان موضوع التحكيم ينحصر في تعيين خليفة جديد للمسلمين كأن خلع علي من الخلافة قد بات أمراً مفروغاً معه .

فاقترح عمرو اسم معاوية فرفضه ابو موسى كما رأينا . واقترح عمرو ـ بعد ذلك ـ اسم ابنه عبد الله فرفضه ابو موسى ايضا ، الامر الذي حدا بأبي موسى ان يتقدم هو بمرشح جديد . وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ولما اطمأن عمرو الى ثبوت ذلك الرأي في ذهن زميله ـ اي فكرة خلع الخليفة وتعيين آخر بدله ـ جعل موضوع البحث ينحصر في الاتفاق على المرشح الجديد .

ولما ظهر انهما لم يتفقا على شخص معين بالذات ، طلب من ابي موسى ان يقترح حلا للخروج من ذلك المأزق الحرج الذي يتوقف عليه مصير الحكم في البلاد والذي يرقبه المسلمون ـ بفارق الصبر ـ في كل مكان .

فتقدم ابو موسى باقتراح جديد ظنه كسبا له واندحار لعمرو بن العاص .

فقد خيل اليه انه سينتصر اذا ماوافق عمرو على « خلع » معاوية بعد أن بات خلع الامام امرا متفقا عليه . فوافق عمرو ـ في الظاهر ـ على الفكرة واغراء باعلانها على الناس ، ثم عاد فغدر به على الشكل الذي وصفناه .

وقد برز عمرو ـ في ذلك كله ـ بأبشع مايبرز فيه الرجل من الخداع ، والدس ، والتدني عن مستويات الاخلاق الرفيعة .

فأغفل صاحبه وأغراه على خلع على ومعاوية على السواء ليترك الامر للمسلمين يختارون من يشاؤون .

فلما اعلن ابو موسى رأيه على الناس ـ كما مر بنا ـ نهض عمرو فأكد خلع علي

وتثبيت ابن ابي سفيان . ولاندري علاقة ذلك كله بالمطالبة بدم عثمان !! وهل تنازع علي ومعاوية على الخلافة ؟

وهل كان معاوية خليفة حتى يخلعه ابو موسى ويثبته ابن العاص ؟

ومهما يكن من شيء فقد حصل خلع الامام وتثبيت معاوية . فارتاع دعاة التحكيم في عسكر الامام .

فظهر المارقون من الخوارج .. وقالوا : لاحكم الا لله وهي كلمة حق يراد بها باطل على ما ذكر الخليفة . واراد اصحاب علي قتال الخوارج في بادىء الامر ولكنه ابى عليهم ذلك وانكره ـ كشأنه في مواقفه الاخرى ضد مناوئيه ـ وقال :

« ان سكتوا تركناهم وان تكلموا حاججناهم وان افسدوا قاتلناهم » (1) .

بدأ المارقون نشر الفساد في المناطق التي كانوا يسكنون فيها ، فنهبوا واغتالوا وتعاطوا كثيرا من الموبقات . « فقتلوا عبد الله بن الخباب بن الارت ـ وخباب من خيرة الصحابة ـ وقتلوا نسوة كن مع عبد الله . وجعلوا يتعرضون الناس ويذيعون الذعر .

فأرسل اليهم علي رجلاً من اصحابه يسألهم عن هذا الفساد .

فلم يكد هذا الرسول يدنو منهم حتى قتلوه » (2) .

فلم يجد علي بداً من مقاتلتهم في النهروان .

وقد وجد الامام نفسه مع ذلك كله ، وامام هذه الامور العظام ، وفي قلب هذه الفتنة الغليظة المظلمة .. كأحسن ما يجد الرجل نفسه .

صدق ايمان ، ونصحاً للدين ، وقياماً بالحق ، واستقامة على الطريق المستقيمة ، لاينحرف ولا يميل ولا يداهن من أمر الاسلام في قليل ولاكثير .

وانما يرى الحق فيمضي اليه لا يلوى على شيء ولايحفل بالعاقبة ، ولا يعنيه

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 113 .

(2) المصدر نفسه ص 113 .

ان يجد في آخر طريقه نجحا او اخفاقا ، ولا ان يجد في آخر طريقه حياة او موتا .

وانما يعنيه كل العناية ان يجد اثناء طريقه ـ وفي آخرها ـ رضا ضميره ورضا الله » (1) .

فلا عجب ان رأينا حياته بعد النهروان خاصة ، على ما يقول الدكتور طه حسين (2) .

« محنة شاقة الى اقصى حدود المشقة ، كان يرى الحق واضحا صريحا .. وقد ظل الخوارج معه بعد ذلك يعايشونه في الكوفة ؛ ويعايشون عامله في البصرة ، وينبثون في اطراف السواد بين المصريين .. وكانوا يكيدون للامام .

يشهدون صلاته ويسمعون خطبه واحاديثه ، وربما عارضه منهم المعارض فقطع عليه الخطبة والحديث ، وهم على ذلك مطمئنون الى عدله .

ويأخذون تعيينهم من الفيء وحظوظهم من المال !!

فأطمعهم عدله واسماحه ، واغراهم لينه وبره .

جاء احدهم ذات يوم وهو : الحريث بن راشد السامي فقال له : والله لا اطعت امرك ولا صليت خلفك .. فلم يغضب على ذلك ولم يبطش به ، وانما دعاه الى ان يناظر ويبين له وجه الحق لعله ان يثوب اليه .

فقال له الحريث : اعود اليك غداً فقبل منه علي فانصرف الرجل الى قومه .

ثم خرج بهم في ظلمة الليل من الكوفة يريد الحرب . ولقى الحريث واصحابه في طريقهم رجلين سألوهما عن دينهما .

وكان احدهما يهوديا ، فلما انبأهم بدينه خلوا سبيله .

وأما الآخر فكان مسلما من الموالي ، فلما انبأهم بدينه سألوه عن رأيه في علي

---

(1) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 122 .

(2) المصدر نفسه 122 - 126 .

(3) المصدر نفسه 133 .

فقال خيراً ، فوثبوا عليه فقتلوه » (1) .

واستمر الحريث واصحابه على عبثهم وفسادهم بأرواح الناس وممتلكاتهم مما اضطر الامام الى تجهيز حملة لتأديبهم وانقاذ الناس من اعتدائهم .

ولم يقف امتحان الامام عند الحد الذي وصفناه من خروج الناكثين فالقاسطين فالمارقين ، وانما تعداه الى ابن عباس عامله على البصرة اقرب الناس اليه . « وكان لابن عباس من العلم بأمور الدين والدنيا ، ومن المكانة في بني هاشم وفي قريش عامة ، وفي نفوس المسلمين جميعاً ما كان خليقا ان يعصمه من الانحراف » (2) .

ويلوح للباحث ان ابن عباس « آثر نفسه بشيء من الخير وسار في بيت المال سيرة تخالف المألوف من امر على ومن امره هو .

وكأنه أنس من صاحب بيت المال ـ وهو ابو الاسود الدؤلي ـ شيئاً من النكير فأغلظ له في القول ذات يوم .

وضاق ابو الاسود بما رأى وسمع فكتب الى علي ... فروعه ...

ولكن علياً صبر نفسه على ما تكره ، كما تعود ان يفعل دائما ..

فكتب الى ابن عباس ... بلغني عنك امر ان كنت فعلته فقد اسخطت ربك وخنت امانتك وعصيت امامك وخنت المسلمين .

فارفع الى حسابك ، واعلم ان حساب الله اشد من حساب الناس ..

وليس غريبا ان يكتب علي الى ابن عباس ما كتب ، فهو لم يتعود الرفق في امر المال ، ولا الادهان في امر من امور المسلمين ..

ولكن ابن عباس اعرض عن هذا كله ، فاعتزل عمله ولكنه مع ذلك لم يستعف

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى . علي وبنوه » ص 133 .

(2) المصدر نفسه ص 130 ، 138 .

امامه ولم ينتظر ان يعفيه ، وانما اعفى نفسه وترك البصرة ، ولحق بمكة حيث لا يبلغه سلطان الامام » .

غير ان ابن عباس « لم يكتف بما بلغ من هذه المغاضبة ، ولا بما انتهى اليه من هذا التصرف الغريب بل اضاف اليه شراً عظيما لم يسوء به الامام وحده .

وانما اساء به الرعية كلها وعامة اهل البصرة خاصة .

فهو قد ازمع الخروج الى مكة ولكنه لم يخرج منها فارغ اليدين من المال كما دخلها حين ولى عليها .

وانما خرج منها وقد ملأ يديه بما كان في بيت المال مما ينقل .

وهو يعلم ان ليس له في هذا المال حق إلا مثل ما لأهل البصرة جميعا فيه » (1) .

فمضى امتحان على « على هذا النحو المر : خيانة من الوالي ، وكيدا من العدو . وهو بين ذلك كله مصمم على خطته الواضحة ، لا يرضى الدنية من الامر ، ولايداهن في دينه ولايتحول عن سياسته الصريحة قليلا ولا كثيراً .

والمحن تتابع عليه ويقفو بعضها اثر بعض ، وهو ماض في طريقه لا ينحرف عنه الى يمين او شمال » (2) .

وفي غمرة النضال وزحمة الصراع مع الباطل تصدى له ابن ملجم فأصاب منه مقتلا « ويروى المؤرخون : ان عليا امر من حوله ان يحسنوا اطعام ابن ملجم ويكرموا منواه . فان برىء من ضربته نظر ، فاما عفا واما اقتص . وامرهم : ان مات ان يلحقوه به ولا يعتدوا : ان الله لا يحب المعتدين » .

* * *

(1) الفتنة الكبرى ـ علي وبنوه ص 129 .
(2) المصدر نفسه ص 183 .

القسم الثالث

بين علي ، ومعاوية ـ :

1 ـ الفصل السابع : مقتطفات من سيرة الامام
2 ـ الفصل الثامن : نماذج من تصرفات معاوية

مقتطفات من سيرة الامام

أشرنا في الفصول السابقة الى كثير من الحوادث التي دلت على تمسك الامام بكتاب الله وسنة رسوله فيما يتعلق بتصرفاته العامة والخاصة ، في زمن الحرب وفي وقت السلم ، مع أنصاره وخصومه على السواء . وها نحن ننقل الى القارىء بعض آثاره التي رواها كبار المؤرخين المسلمين .

(1)
فلسفة الحكم

تتلخص فلسفة الحكم ـ عند الامام ـ في عهده للأشتر الذي ولاه مصر فدس له السم ـ في الطريق ـ احد الاشخاص بتحريض من معاوية وعمرو بن العاص كما يحدثنا الرواة . والى القارىء ملخص العهد (1) :

« هذا ما امر به عبد الله أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر في عهده اليه حين ولاه مصر .. أمره بتقوى الله وايثار طاعته واتباع ما امر به في كتابه ..

ثم اعلم يا مالك اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وان الناس ينظرون من امورك في

مثل ما كنت تنظر فيه الى امور الولاة قبلك .

ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم ..

فليكن أحب الذخائر اليك خيرة : العمل الصالح .

أشعر قلبك الرحمة للرعية .. فإنك فوقهم ..

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك .. وليكن أحب الامور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية . فإن سخط العامة ، يجحف برضاء الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة ..

وليكن أبعد رعيتك منك .. أطلبهم لمعايب الناس .. إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة ..

ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بالحق لك .. ألصق بأهل الورع والصدق ، ثم حثهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ..

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 119 ، 152 .

ولايكونن المحسن والمسيء عندك سواء : فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإسائة .

والزم كلا منهم ماالزم نفسه ، واعلم أنه ليس شيء أدعى الى حسن ظن وال برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤنات عليهم ..

لا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامة ..

وصلحت عليها الرعية .

ولاتحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن ..

وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء ..

واعلم : أن الرعية طبقات لايصلح بعضها الا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض ؛ فمنها الجنود ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل وعمال الإنصاف وأهل الجزية والخراج من أهل الذمة ، ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجات والمسكنة .

وكل قد سمى الله له سهمه ، ووضع على حده وفرضه في كتابه أو سنة نبيه ..

إن فضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية ..

اختر للحكم بين الناس : أفضل رعيتك في نفسك ممن لاتضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم .. ثم انظر أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وإثرة ..

أسبغ عليهم الارزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوك أمرك ..

ثم تفقد اعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم .. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في اصلاحهم صلاحا لمن سواهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخراج ..

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً .. واعلم مع ذلك ان في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضر للعامة وعيب على الولاة .

---

(187)

فامتنع من الاحتكار ، فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه فنكل به وعاقبه من غير اسراف .

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين ..

إجعل لهم قسما من بيت المال .. ولا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم .

وتفقد أمور من لايصل اليك منهم . ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع لترفع إليك أمورهم ..

واجعل لذوى الحاجات وقتاً تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه ..

وتعقد عنهم جندك وأعوانك من حراسك وشرطك حتى يكلمك مكلمهم غير متعتع .. ثم احتمل الخرق منهم والعيّ ونح عنهم الضيق ..

ولا تطولن احتجاجك عن رعيتك .. فالاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه .. فيشاب الحق بالباطل . وانما الوالي بشر لايعرف ما توارى عنه الناس من الامور . وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ..

ثم ان للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف في المعاملة :

فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال ..

وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ..

وحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالامانة .. فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس اشد عليه اجتماعاً ـ مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ـ من تعظيم الوفاء بالعهود ..

ولا تغدرن بذمتك .. واياك والدماء وسفكها بغير حلها .. ولاعذر لك عند الله ولاعندي في قتل العمد ..

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء ..

---

(188)

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك ..

أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك .. وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقط فيها عند إمكانها ...

فضع كل أمر موضعه .. أملك حمية انفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك .

واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار » .

(2)
حرصه على بيت المال

لقد مر بنا جانب من ذكر حرص الإمام على أموال المسلمين عندما تحدثنا عن موقفه من ولده الحسين في قضية العسل ، ومن أخيه عقيل حين قدم عليه طالباً زيادة حصته من الدقيق .

وإلى القارىء طائفة من الامثلة الاخرى في هذا الباب .

قال هارون بن عنترة عن أبيه : دخلت على علي بالخورنق ـ وهو فصل شتاء ـ وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه فقلت :

يا أمير المؤمنين إن الله جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً ؛ وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال :

والله ما أرزأكم شيئا . وماهي الا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة » (1) .

ولم ينزل الإمام ـ على ما يحدثنا الرواة ـ « القصر الابيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التي كان يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام .

وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على علي فإذا بين يديه لبن حامض آذنتني حموضته وكسرة يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟

---

(1) العقاد : « عبقرية الإمام علي » ص 13 ، وابن الأثير : « الكامل في التاريخ » 3 / 200 .

فقال لي : يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ، ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار الى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت الا الحق به » (1) .

وكتب ابن الأثير : ان عاصم بن كليب روى عن ابيه انه قال : « قدم على علي مال من اصبهان فقسمه على سبعة اسهم . فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ودعا امراء الاسباع فأقرع بينهم لينظر ايهم يعطى أولاً .

وذكر يحيى بن مسلمة : أن علياً استعمل عمرو بن مسلمة على أصبهان « فقدم ومعه مال كثير وزقاق فيها عسل وسمن .

فأرسل أم كلثوم بنت على الى عمرو تطلب منه سمناً وعسلاً . فأرسل اليها ظرف عسل وظرف سمن . فلما كان الغد خرج علي واحضر المال والسمن والعسل ليقسم . فعد الزقاق فنقصت زقين . فسأله عنهما . فكتمه وقال : نحن نحضرهما . فعزم عليه الا ذكرهما له . فأخبره . فأرسل الى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا ، فأمر التجار بتقويم مانقص منهما ، فكان ثلاثة دراهم .

فأرسل اليها فأخذها منها ! ، ثم قسم الجميع ..

وقال سفيان : إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولاقصبة على قصبة .

وقيل : إنه أخرج سيفاً الى السوق فباعه وقال : لو كان عندي اربعة دراهم ثمن إزار لم ابعه ، وكان لا يشتري ممن يعرفه ، واذا اشترى قميصاً قدر كمه على طول يده وقطع الباقي ، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول :

لأحب ان يدخل بطني الا ما اعلم » (2) .

---

(1) عباس محمود العقاد « عبقرية الإمام علي » ص 25 .

(2) الكامل في التاريخ 3 / 200 - 202 .

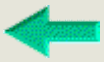

(3)
تواضعه وعدله

ذكر الشعبي - على مايقول ابن الأثير (1) :

ان علياً وجد درعاً عند نصراني « فأقبل الى شريح قاضيه وجلس الى جانبه يخاصم النصراني مخاصمة رجل من رعاياه ، وقال : انها درعي ولم أبع ولم اهب ، قال شريح للنصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟

قال النصراني : ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين بكاذب ؟ !

فالتفت شريح ، الى علي يسأله . يا أمير المؤمنين ، هل من بينة ؟ فضحك علي ..

وقال : اصاب شريح ، مالي من بينة ؟ فقضى بالدرع للنصراني فاخذها ومشى .. وأمير المؤمنين ينظر اليه .. الا ان النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه .. وقاضيه يقضى عليه ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين » .

وكان الإمام ، لشدة تواضعه وحرصه على إقامة العدل بين رعيته ، اذا أراد أن يشتري شيئا بنفسه ، على ما يذكر الدكتور طه حسين « تحرى بين السوقة رجلا لا يعرفه فاشترى منه ما يريد .

وكان يكره ان يحابيه البائع ان عرف انه أمير المؤمنين ، ثم كان لايرضى عن نفسه الا اذا أدى للناس حقهم عليه في دينه فأقام لهم صلاتهم وعلمهم بالقول والعمل وقام على اطعام فقرائهم طعام العشاء وتحرى ذوى الحاجة منهم فأغناهم عن المسألة .

وكان يخلو لنفسه اذا كان الليل فينصرف عن الناس الى عبادته الخاصة مصلياً مجتهداً حتى يتقدم الليل ، فاذا اخذ بحظه من النوم غلس بالخروج الى المسجد » (2) .

---

(1) الكامل في التاريخ 2 / 201 ، 202 .

(2) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى علي وبنوه » ص 159 .

(4)
تحليل لسياسته العامة

« أعلم أن قوماً ممن لم يعرفوا حقيقة فضل علي بن ابي طالب ، زعموا : أن عمر ابن الخطاب كان أسوس منه ، وإن كان هو أعلم من عمر ، وصرح بذلك أبو علي ابن سينا : وعلي بن ابي طالب كان مقيداً بقيود الشريعة مدفوعاً الى اتباعها .

ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير اذا لم يكن للشرع موافقاً .

فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن يلتزم بذلك ، ولسنا ـ بهذا القول ـ زارين على عمر .. ولكن عمر كان مجتهداً يعمل بالقياس ..

ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء والاستنباط من أصول تقضى خلاف ما يقتضيه عموم النص ، ويكيد خصمه ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة ، ويؤدب بالدرة والسوط ـ من يغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك ، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب .

ولم يكن علي يرى ذلك ، وكان يقف مع النصوص لا يتعداها الى الاجتهاد والاقيسة ، ويطبق امور الدنيا على أمور الدين ويسوق الكل مساقاً واحداً .

ولا يرفع ولا يضع إلا بالكتاب والنص ..

ولم يكن يرى مخالفة الشرع لاجل السياسة سواء اكانت سياسته دينية ام دنيوية .

أما الدنيوية : فنحو أن يتوهم الإمام في انسان أنه يروم فساد خلافته من غير ان يثبت ذلك عليه يقيناً .

فإن علياً لم يكن يستحل قتله ولا حبسه ولا يعمل بالتوهم وبالقول غير المحقق .

وأما الدينية : فنحو ضرب المتهم بالسرقة فإنه لم يكن يعمل به بل يقول : أن يثبت عليه بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد والا لم اعترضه .

... واذا كان مذهبه ما قلناه وكان معاوية عنده فاسقاً وقد سبق عنده مقدمة اخرى ويقينية هي : ان استعمال الفاسق لا يجوز ، ولم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة فقد تعين مجاهرته بالعزل ، وإن أفضى ذلك الى الحرب .. وجواب ـ على الاعتراض على عزله معاوية ـ وهو : أنا علمنا أن الاحداث التي نقمت على عثمان .. توليته معاوية الشام مع ماظهر من جوره وعدوانه ومخالفته احكام الدين .. وقد خوطب عثمان في ذلك فاعتذر ..

فلو أن علياً فتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام واقراره فيه أليس كان يبتدى .

أول أمره بما انتهى اليه عثمان في آخره ؟ ..

ولو كان اقراره معاوية في حكم الشريعة سائغاً والوزر فيه مأموناً لكان غلطاً قبيحاً في السياسة وسبباً قرباً للعصيان والخالفة . ولم يكن يمكن علياً ان يقول للمسلمين .

إن حقيقة رأيي هي : عزل معاوية عند استقرار الامر وطاعة الجمهور .

وإن قصدي ـ بإقراره على الولاية ـ مخادعته وتعجل طاعته .. لان اظهاره لهذا العزم كان يتصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذي شرع فيه ..

ومما اعترض على علي به : أنه ترك طلحة والزبير حتى خرجا الى مكة وأذن لهما في العمرة ، وظهر عنه الرأي في ارتباطهما قبله ومنعهما من البعد عنه ـ في عهد عمر ـ .

وقد روى عن عليّ أنه قال لهما ـ .

والله ما تريدان العمرة وانما تريدان الغدرة وخوفهما بالله من التسرع الى الفتنة .

وأخذ عليهما عهد الله وميثاقه في الرجوع الى المدينة ؛ وما كان يجوز له ـ في الشرع ان يحبسهما ، ولا في السياسة ، فلإنه لو اظهر التهمة لهما ـ وهما من افاضل السابقين وجلة المهاجرين ـ لكان في ذلك من التنفير عنه ما لا يخفى ومن الطعن عليه ما هو معلوم ..

لاسيما وأن طلحة كان اول من بايعه . والزبير لم يزل مشتهراً بنصرته » (1) .

(5)
بعض أقواله المأثورة

1 ـ الدنيا منتهى بصر الاعمى لا يبصر مما وراءها ، والبصير ينفذها بصره ويعلم أن الدار وراءها ، فالبصير منها شاخص والاعمى اليها شاخص ، والبصير منها متزود والاعمى لها متزود (2) .

2 ـ ليس لواضع المعروف في غير حقه وعند غير أهله الا محمدة اللئام وثناء الاشرار ومقالة الجهال ما دام منعماً عليهم .

3 ـ إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء اخفى من الحق ولا اظهر من الباطل ولا اكثر من الكذب على الله .. ولا في البلاد شيء انكر من المعروف ولا اعرف من المنكر .

4 ـ اذا أقبلت الدنيا على قوم اعارتهم محاسن غيرهم ، واذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن انفسهم .

5 ـ خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم ، وإن عشتم حنوا اليكم .

6 ـ إحذروا صولة الكريم اذا جاع ، واللئيم اذا شبع .

7 ـ هلك فيّ رجلان : محب غال ومبغض قال .

8 ـ احذروا أهل النفاق فإنهم الضالون المضلون ..

يمشون الخفاء ويدبون الضراء .. لهم بكل طريق صريع .

---

(1) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » 2 / 573 - 583 .

(2) هذا القول وما بعده من الاقوال مأخوذة من « شرح نهج البلاغة » لابن ابي الحديد .

وإلى كل قلب شفيع ، ولكل شجو دموع ، يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء .

إن سألوا ألحفوا ، وإن عذلوا كشفوا ، وإن حكموا اسرفوا .

وقد اعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ، ولكل حي قاتلاً ، ولكل باب مفتاحاً ، ولكل ليل مصباحاً .

9 ـ احذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين .

واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية .

واحذر كل عمل اذا سئل صاحبه أنكره أو اعتذر منه .

10 ـ فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه .

11 ـ الصبر صبران : صبر على ما تكره وصبر عما تحب .

12 ـ من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه .

13 ـ إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان ، وسبيلان مختلفان ، فمن احب الدنيا وتولاها ابغض الآخرة وعاداها .

وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما كلما قرب من واحد بعد من الآخر .

14 ـ صاحب السلطان كراكب الاسد يغبط بموقعه وهو أعلم بموضعه .

15 ـ من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته .

16 ـ العدل صورة واحدة والجور صور كثيرة ، ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحري العدل ، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها .

وإن الإصابة تحتاج الى ارتياض وتعهد ، والخطأ لا يحتاج الى شيء من ذلك .

17 ـ أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها . ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها ولهجاً بها .

---

18 ـ لقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه الا إدباراً والشر فيه الا إقبالاً ... اضرب بصرك حيث شئت من الناس ، فهل تبصر الا فقيراً يكابد فقراً أو غنياً بدل نعمة الله كفراً او بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفراً .. أو متمرداً كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقراً .. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به .

19 ـ يا أبا ذر : غضبت لله فارج من غضبت له .

إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك في أيدهم ماخافوك عليه ، واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما احوجهم الى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك !

20 ـ إن لسان المؤمن من وراء قلبه ، وإن قلب المنافق من وراء لسانه ، لأن المؤمن اذا اراد ان يتكلم بكلام تدبره في نفسه ، فإن كان خيراً أبداه ، وإن كان شراً واراه . وان المنافق يتكلم بما اتى على لسانه ، لايدرى ماذا له وماذا عليه .

21 ـ والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر .

22 ـ ومن وصية له للحسن كتبها اليه بحاضرين من صفين :

من الوالد الفاني .. المستسلم للدهر ...

الى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك .. تاجر الغرور ، وغريم المنايا .. وصريع الشهوات .

أوصيك بتقوى الله اي بني ولزوم امره . وامر بالمعروف تكن من اهله ، وانكر المنكر بيدك ولسانك .. ولاتأخذك في الله لومة لائم ..

وخض الغمرات للحق حيث كان .

وتفقه في الدين ، وعود نفسك التصبر على المكروه .

وأخلص في المسألة لربك ..

واعلم : أنه لا خير في علم لا ينفع ، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه ..

---

(196)

اي بني : إني وان لم اكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في اعمالهم ، وفكرت في اخبارهم ، وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم ، بل كأني بما انتهى الى من امورهم قد عمرت مع اولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره ، اعلم يا بني ان احب ما أنت آخذ به وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك .

يابني اجعل من نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك . فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك او اكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب ان تظلم ، واحسن كما تحب ان يحسن اليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك .

وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم وإن قَّل ماتعلم .

واعلم : انك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا .. وانت طريد الموت الذي لا ينجو منه هارب .. فكن منه على حذر ان يدركك وانت على حالة سيئة .

وإياك ان تغتر بما ترى من اخلاد اهل الدنيا اليها وتكالبهم عليها .. فإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهر بعضها على بعض ويأكل عزيزها ذليلها .. سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، فتاهوا في حيرتها .. ونسوا ما وراءها .

واعلم يابني : ان من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وان كان واقفاً ..

واكرم نفسك عن كل دنية وان ساقتك اليه الرغائب ... وماخير ؛ خير لا ينال الا بشر ، وبشر لا ينال الا بعسر .. وتلافيك ما فرط من صمتك ايسر من ادراكك ما فات من منطقك .. والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور .

إحمل نفسك من اخيك عند صرمه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة .. وعند جرمه على العذر ، حتى كأنك له عبد .. وإياك ان تضع ذلك في غير موضعه ..

لا تتخذ من عدو صديقك صديقا ، فتعادي صديقك ، وامحض اخاك النصيحة حسنة كانت ام قبيحة .

ولن لمن غالظك فإنه يوشك ان يلين لك .

---

(197)

إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع اليها إن بدا له ذلك يوما ما ..

ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى ..

استدل على مالم يكن بما قد كان ، فإن الامور اشباه ، ولاتكون ممن لاتنفعه العظة الا اذا بالغت في ايلامه ، فإن العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لاتتعظ الا بالضرب .

(6)
ماينطبق عليه من آي الذكر الحكيم

سورة النساء : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً » .

سورة فصلت : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ماتدعون »

سورة المنازعات : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى : » .

نماذج من تصرفات الخليفة الجديد

لقد مر بنا نماذج من تصرفات معاوية تجاه خصومه واتباعه معاً . وكان طابع تلك التصرفات ، كما لاحظ القارىء ، الغدر والإيقاع بالخصوم ، وبذل المال وتوزيع المناصب على الأتباع .

أي ان سياسة معاوية كانت سياسة وصولية انتهازية تسير على المبدأ القائل : بأن الوسائل تبررها الغايات ، ولو كانت الغايات نبيلة عادلة تهدف الى توزيع العدل الاجتماعي بين الناس لكان هناك مجال امام الباحث للدفاع عنها ، ولكنها كما رأينا :

أهداف شخصية نفعية غرضها الظاهر التوصل إلى الحكم بمختلف الأساليب والوسائل .

وهدفها البعيد تحطيم روح الإسلام والقضاء على مثله العليا في السياسة والاخلاق .

وقد نجح معاوية ـ مع الاسف الشديد ـ فيما كان يتوق الى التوصل إليه ، فاستولى على خلافة المسلمين ، وسار بها وفق أهوائه ومصالحه ، وخلف للمسلمين والعرب هذا التراث الاجتماعي البغيض وهذه العصبية الطائفية والقبلية المجرمة التي نكتوي بنارها في الوقت الحاضر .

وإلى القارىء نماذج اخرى من تصرفات ابن ابي سفيان ، سقناها لغرض موازنتها بتصرفات ابن ابي طالب ، ليرى القارىء الفرق الكبير بين الرجلين ، ومدى التدهور الذي اصاب نظام الحكم في الإسلام ، وقديماً قيل : وبضدها تتميز الاشياء .

* * *

---

(1)
مأساة حجر بن عدي

ذكر ابن الأثير (1) قصة حجر واتباعه فقال : « دخلت سنة إحدى وخمسين وفيها قتل حجر بن عدي واصحابه وسبب ذلك ان معاوية استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة احدى واربعين . فلما امره عليها دعاه وقال :

قد اردت ايصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك ، ولست تاركاً ايصاءك بخصلة : لاتترك شتم علي وذمه

، والترحم على عثمان ، والعيب لاصحاب علي ، والإفصاء لهم ، والإطراء بشيعة عثمان ، والإدناء لهم .

فأخذ المغيرة يشتم علياً .. فإذا سمع ذلك حجر بن عدي قال :

بل إياكم ذم الله ولعن . أنا أشهد ان من تذمون احق بالفضل .

وقد حبس المغيرة أرزاق حجر واصحابه . فكان حجر يناديه بقوله :

مر لنا ايها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك .

ثم توفى المغيرة وولى زياد فاستمر على الفعل نفسه .

وجمع زياد من أصحاب عدي اثنا عشر رجلا في السجن واحضر شهوداً وقال : إني لأحب ان يكون الشهود أكثر من اربعة ، فدعا الناس ليشهدوا فشهد جمع كبير منهم : اسحق ، وموسى ، ابنا طلحة بن عبيد الله ، والمنذر بن الزبير ، وعمار ابن عقبة ابن ابي معيط .

ثم دفع زياد حجر بن عدي وأصحابه الى وائل بن حجر الحضرمي وكثير ابن شهاب وامرهما ان يسيرا بهم الى الشام فخرجوا عشية فلما بلغوا الغريين لحقهم شريح بن هاني واعطى وائلا كتابا فقال : ابلغه امير المؤمنين فأخذه . وساروا حتى انتهوا بهم الى مرج عذراء عند دمشق وكانوا :

---

(1) الكامل في التاريخ 3 / 233 - 239 .

حجر بن عدي الكندي ، والارقم بن عبد الله الكندي ، وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي بن فسيل الشيباني ، وقبيصة بن ضبيع العبسي ، وكريم بن عفيف الخثعمي ، وعاصم بن عوف البجلي ، وورقاء بن سمى البجلي ، وكدام بن حسان ، وعبد الرحمن العنزيان ، ومحرر بن شهاب التميمي ، وعبد الله بن حوية السعدي ..

وأتبعهم برجلين هما : عتبة بن الاخمس بن سعد بن بكر ، وسعد بن نمران الهمداني . فتموا اربعة عشر رجلا .

ودفع وائل الى معاوية كتاب شريح بن هاني . فإذا فيه : بلغني ان زياداً كتب شهادتي وان شهادتي على حجر انه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال » .

وروى الطبري (1) مأساة ابن عدي وصحبه على الشكل التالي :

« جاء قيس بن عباد الشيباني الى زياد فقال له : ان شخصا منا من بني همام يقال له صيفي بن فسيل من رؤوس اصحاب حجر وهو اشد الناس عليك ، فبعث اليه زياد فأتى به فقال له زياد : يا عدو الله ما تقول في ابي تراب قال : ما اعرف ابا تراب .

قال : اما تعرف علي بن ابي طالب ؟ قال : بلى . قال : فذاك ابو تراب .

قال : كلا ذاك ابو الحسن والحسين .

فقال له صاحب الشرطة : يقول لك الأمير هو ابو تراب ؟ وتقول انت لا . قال : وإن كذبت الأمير اتريد ان اكذب واشهد له على باطل كما شهد . قال له زياد : وهذا ايضا مع ذنبك !!! عليَّ بالعصا . فأتى بها فقال ما قولك ؟

قال : احسن قول انا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين

(1) تاريخ الامم والملوك 6 / 149 - 155 .

قال : اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلتصق بالارض فضرب حتى لزم الارض .

ثم قال : اقلعوا عنه فسأله : إيه ما قولك في علي .

قال : والله لو شرحتني بالمواسي والمدى ما قلت إلا ما سمعت مني .

قال : لتلعننه او لاضربن عنقك قال : اذا تضربها والله قبل ذلك فإن ابيت الا ان نضربها رضيت بالله وشقيت انت قال : ادفعوا في رقبته .

ثم قال : اوقروه حديداً والقوه في السجن .

ويستمر الطبري على سرد تلك المأساة فيروي لنا قصة شهادة الزور الكبرى التي لفقتها حكام المسلمين آنذاك على هؤلاء النفر من المسلمين .

« هذا ما شهد عليه ابو بردة بن ابي موسى لله رب العالمين شهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة .

وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع امير المؤمنين معاوية وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء . فقال زياد : على مثل هذه الشهادة فاشهدوا ، أما والله لاجدن على قطع خيط عنق الخائن الاحمق .

فشهد رؤوس الارباع على مثل شهادته وكانوا اربعة .

ثم إن زياداً دعا الناس فقال : اشهدوا على مثل شهادة رؤوس الارباع .

فقرأ عليهم الكتاب فقال اول الناس عناق بن سرجيل بن ابي دهم التيمي فقال : زياد : أبدأوا بأسامي قريش ثم اكتبوا اسم عناق في الشهود ومن نعرفه ويعرفه امير المؤمنين .

فشهد إسحق بن طلحة بن عبيد الله ، وموسى بن طلحة ، واسماعيل بن طلحة والمنذر بن الزبير ، وعمارة بن عقبة بن ابي معيط ، وعبد الرحمن بن هناد ، وعمر ابن سعد بن ابي وقاص ، وعامر بن مسعود بن امية ، ومحرز بن ربيعة بن عبد العزى

ابن عبد شمس ، وعبيد الله بن مسلم بن شعبة الحضرمي ، وعناق بن شرجيل بن ابي دهم ووائل بن حجر الحضرمي ، وكثير بن شهاب ابن حصين الحارثي وقطن ابن عبد الله بن حصين والسرى بن وقاص الحارثي .

وكتبت شهادته وهو غائب في عمله ـ والسائب بن الاقرع الثقفي وشبث ابن ربعي وعبد الله بن ابي عقيل الثقفي ، ومصقلة بن هبيرة الشيباني والقعقاع بن شور الدهلي ، وشداد بن المنذر بن الحارث بن وغلة الذهلي .. وحجار بن ابجر العجلي ، وعمرو بن الحجاج الزبيدي ، ولبيد بن عطارد التميمي ، ومحمد بن عمير ابن عطارد التميمي ، وسويد بن عبد الرحمن التميمي واسماء بن خارجة القزاري ، وشمر بن ذى الجوشن العامري وشداد ومروان ابنا الهيثم الهلاليان ، ومحصن ابن ثعلبة بن عائدة القرشي ، والهيثم بن الاسود النخعي ـ وكان يعتذر اليهم ـ وعبد الرحمن بن

قيس الاسدي ، والحارث وشداد ابنا الازمع الهمدانيان وكريب بن سلمة بن يزيد الجعفي ، وعبد الرحمن بن ابي سبرة الجعفي ، وزحر بن قيس الجعفي ، وقدامة بن العجلان الازدي ، وعزرة بن عزة الاحمس .

وكتبت شهادة هؤلاء الشهود في صحيفة ثم دفعها زياد الى وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب الحارثي ، وبعثهما عليهم ، وامرهما ان يخرجا بهم .

وكتب في الشهود شريح بن الحارث القاضي وشريح بن هاني الحارثي .

فأما شريح القاضي فقال :

سألني عن حجر فأخبرته أنه كان صواماً قواماً .

وأما شريح بن هاني الحارثي فكان يقول :

ما شهدت ولقد بلغني ان قد كتبت شهادتي فأكذبته ولمته .. فمضوا بهم حتى انتهوا الى الغريين فلحقهم شريح بن هاني معه كتاب .

فقال لكثير : بلغ كتابي هذا أمير المؤمنين .

ودفع وائل بن حجر كتاب شريح بن هاني فقرأه فإذا به : أما بعد فإنه بلغني أن زياداً كتب اليك بشهادتي على حجر بن عدي وان شهادتي على حجر انه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال » .

وأما من قتل من أصحاب حجر فهم كما يقول الطبري :

« حجر بن عدي وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي بن فسيل الشيباني ، وقبيصة ابن ضبيعة العبسي ، ومحرز بن شهاب السعدي ثم المنقري ، وكدام بن حيان العنزي وعبد الرحمن بن حسان العنزي الذي رد الى زياد فدفن حياً » (1) .

وقد رثت هند بنت زيد بن مخرمة الانصارية حجراً :

ترفع أيها القمر المنير * تبصر هل ترى حجراً يسير

يسير الى معاوية بن حرب * ليقتله كما زعم الأمير

ألا يا حجر حجر بن عدي * توقتك السلامة والسرور

أخاف عليك ما أرضى عديا * وشيخاً في دمشق له زئير

يرى قتل الخيار عليه حقاً * له من شر أمته وزير

وهكذا انتهت ، على ما يقول الدكتور طه حسين (2) :

« هذه المأساة المنكرة التي استباح فيها أمير من أمراء المسلمين ان يعاقب الناس على معارضة لا إثم فيها ، وأن يكره وجوه الناس واشرافهم على ان يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً ، وان يكتب شهادة القاضي على غير علم منه ولا

رضا ...

استباح أمير من امراء المسلمين لنفسه هذا الإثم ، واستحل هذه البدع واستباح إمام من ائمة المسلمين ان يقضى بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم ، دون ان يراهم او يسمع لهم او يأذن لهم في الدفاع عن انفسهم » .

---

(1) تاريخ الامم والملوك 6 / 155 .

(2) الفتنة الكبرى . علي وبنوه ص 243 .

(2)
نماذج أخرى من غدر معاوية

لقد مر بنا الإلماع الى بعض حوادث غدر معاوية بخصومه ، وبخاصة تدبيره مؤامرة قتل الاشتر في طريقه الى مصر .

ولعل ابرز تلك الحوادث :

غدره بالحسن بن علي بعد الصلح المعروف الذي عقد بين الطرفين .

ولم يكتف معاوية بالنكث بذلك العهد ، وإنما ذهب إلى تدبير مؤامرة قتل الحسن .

قال المسعودي (1) « وذكر أن امرأة الحسن جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي سقته السم ، وقد كان معاوية دس لها » .

وذكر المسعودي كذلك (2) « أن عبد الله بن العباس وفد على معاوية فقال : والله إني لفي المسجد اذ كبر معاوية في الخضراء فكبر أهل الخضراء .. فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد المناف ـ وهي زوج معاوية بن ابي سفيان ـ من خوخة لها فقالت :

سرك الله يا أمير المؤمنين ماهذا الذي بلغك فسررت به ؟ قال موت الحسن » وفعل معاوية شيء مشابه لما ذكرناه في قضية تدبيره مؤامرة قتل عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد .

* * *

---

(1) مروج الذهب ومعادن الجوهر 2 / 303 .
(2) المصدر نفسه 2 / 307 .

(3)
إلحاقه زياد بن أبية بأبي سفيان

ذكر المسعودي (1) : « ولما هم معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان ـ أبيه ـ وذلك في سنة أربعين شهد عنده زياد بن اسماء الحرمازني ، ومالك بن ربيعة السلوى ، والمنذر بن الزبير بن العوام ان ابا سفيان اخبر أنه ابنه ... ثم زاده

يقيناً إلى ذلك شهادة ابي مريم السلولي .

وكان أخبر الناس ببدء الامر ، وذلك انه جمع بين ابي سفيان وسمية ام زياد في الجاهلية على زنى ، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدى الضريبة الى الحرث بن كلدة وكانت تنزل في الموضع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف وخارجاً عن الحضر في محلة يقال لها حارة البغايا ... »

ثم ذكر المسعودي نص شهادة الاستلحاق : « قال ابو مريم السلولي :

أشهد ان أبا سفيان قدم علينا بالطائف . وانا خمار في الجاهلية فقال : ابغني بغياً فأتيته وقلت لم اجد الا جارية الحارث بن كلدة سمية .

فقال : ائتني بها على ذفرها وقذرها .

فقام يونس بن عبيد اخو صفية مولاة سمية .

فقال : يا معاوية قضى الله ورسوله ان الولد للفراش وللعاهر الحجر وقضيت ان الولد للعاهر .. مخالفة لكتاب الله » .

ويستطرد المسعودي في ذكر هذه القصة الطريفة فيروى ما قاله عبد الرحمن بن ام الحكم في ذلك من شعر :

ألا أبلـغ معاوية بن حـرب * مغلغلة عن الرجل اليمـــاني

أتغضب ان يقال : ابوك عف * وترضى ان يقال : أبوك زاني

(1) مروج الذهب ومعادن الجوهر 2 / 310 - 312 .

فأشهد أن رحمك من زياد * كرحم الفيل من ولد الأتان

وفي زياد وإخوته يقول خالد البخاري :

إن زيـــاداً ونـافعـاً وأبـا * بكرة عندي أعجب العجـب !!

إن رجـالا ثلاثـة خـلقوا * من رحم أنثـى مخالفي النسب

ذا قرشي فيمـا يقـول : وذا * مولى وذا ابـن عمــه عربي

ويروى ابن ابي الحديد (1) ظروف قصة الاستلحاق على الوجه التالي : « فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال : العجب من ابن آكلة الاكباد ورأس النفاق يهددني ، ثم كتب الى علي وبعث بكتاب معاوية في كتابه .. وكتب له الإمام :

إن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذره ثم احذره ... فلما قتل علي بقى زياد في عمله وخاف معاوية جانبه وعلم صعوبة ناحيته وأشفق من ممالأته الحسن ... فكتب إليه ...

أما بعد : فإنك عبد قد كفرت النعمة واستدعيت النقمة ... لا أم لك ، بل لا أب لك .

يا ابن سمية إذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة وأسرع الإجابة .. وإلا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون

سعى . وأقسم قسماً مبرراً ان لا اوتى بك إلا في زمارة ، تمشي حافيا من أرض فارس الى الشام حتى اقيمك في السوق وابيعك عبداً واردك الى حيث كنت فيه وخرجت منه ...

فلما ورد الكتاب على زياد غضب غضباً شديداً وجمع الناس وصعد المنبر .

وقال : إن ابن آكلة الأكباد وقاتلة اسد الله ، ومظهر الخلاف ، وسر النفاق ، ورئيس الاحزاب .

ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب الى يرعد ويبرق عن سحابة جفل لا ماء فيها .

---

(1) شرح نهج البلاغة 4 / 68 - 72 .

ثم نزل ، وكتب إلى معاوية .. لقد وصل الي كتابك .. فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع .. ولولا حلم ينهاني عنك .. لانرت لك مخازي لايغسلها الماء .. وإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة .

أما زعمك أنك تخطفني بأضعف ريش ، فهل سمعت بذئب أكله خروف .

فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمه واحزنه وبعث الى المغيرة بن شعبه فخلا به .

قال المغيرة .. إن زياداً رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر ، فلو لاطفته المسألة ، وألنت له الكتاب ، لكان لك أميل وبك وأوثق ، فاكتب اليه وأنا الرسول .

فكتب معاوية .. الى زياد بن ابي سفيان .. حملك سوء ظنك بي وبغضك لي على ان عققت قرابتي وقطعت رحمي .. حتى كأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وابي . وشتان ما بيني وبينك . أطلب بدم ابن العاص وأنت تقاتلني .

فرحل المغيرة بالكتاب حتى قدم فارس فلما رآه زياد قدمه وأدناه ولطف به فرفع اليه الكتاب . فجعل يتأمله ويضحك .

ثم جمع الناس .. وصعد المنبر .. وقال : لقد نظرت في امور الناس منذ قتل عثمان .. فوجدتهم كالاضاحي في كل عيد يذبحون .

وكتب كتاب الجواب الى معاوية :

الحمد لله الذي عرفك الحق وردك الى الصلة . ولست ممن يجهل معروفاً ولا يغفل حسباً ..

وروى المدائني قال : لم اراد معاوية استلحاق زياد وقد قدم عليه من الشام جمع من الناس وصعد المنبر واصعد زياداً معه .

ثم قال : إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد ، فمن كان عنده شهادة فليقم بها .. فقام ابو مريم السلولي وكان خماراً في الجاهلية فقال :

إن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً ،

فلما أكل قال : يا أبا مريم اصب لي بغياً . فخرجت فأتيت بسمية .. تجر ذيلها فدخلت معه .

وروى شيخنا ابو عثمان : أن زياداً مر وهو والي البصرة بأبى العريان العدوى وكان شيخاً مكفوفاً ذا لسن وعارضة

شديدة . فقال ابو العريان ماهذه الجلبة ؟ قالوا : ، زياد ابن ابي سفيان . قال : والله ماترك ابو سفيان الا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً ، فمن أين جاء زياد : فبلغ الكلام زياداً .

وقال قائل له : لو سددت عنك فم هذا الكلب فأرسل إليه بمائتي دينار ! فقال له رسول زياد : إن ابن عمك زياداً الامير قد ارسل إليك مائتي دينار .. ثم مر به زياد من الغد في موكبه . فوقف عليه وسلم . وبكى ابو العريان . فقال مايبكيك ؟ قال : عرفت صوت ابي سفيان في صوت زياد . فبلغ ذلك معاوية فكتب الى ابي العريان :

ما ألبثتك الدنانير التي بعثت * أن لونتك أبا العريان ألوانا
أمسى إليك زياد في أرومته * نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
لله در زياد لو تعجلها * كانت له دون ما يخشاه قربانا

فلما قرىء كتاب معاوية على ابي العريان قال : أكتب جوابه ياغلام :

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها * قد كدت يا ابن أبي سفيان تنسانا
أما زياد فقد صحت مناسبه * عندي فلا أبتغي في الحق بهتانا
من يسد خيراً يصبه حين يفعله * أو يسد شراً يصبه حيثما كان (1)

وقد تم ذلك سنة 56 هـ أي قبل ان ينتصف القرن [الاول] على وفاة النبي ورحم الله الحسن البصري فقد كان يقول فيما يروى الطبري : « أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الامة بالسفهاء حتى ابتزها امرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ؛

---

(1) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » 4 / 68 - 70 .

واستخلافه ابنه بعده سكيراً وخميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله : الولد للفراش وللعاهر الحجر ؛ وقتله حجر بن عدي » (1) .

(4)
أقواله المأثورة

1 ـ ذكر أبن الأثير(2) :

لما مرض معاوية مرضه الذي مات فيه دعا ابنه يزيد فقال : يابني إني كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الامور ، وذللت لك الاعداء ، واخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك مالم يجمعه أحد .

وإني لست أخاف عليك ان ينازعك في هذا الامر الا اربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ،

وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن ابي بكر .

فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقدته العبادة . فإذا لم يبق أحد غيره بايعك .

وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ..

وأما ابن أبي بكر فإنه رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ، وليس همه الا في النساء واللهو .

وأما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن امكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير .

فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إرباً » (3) .

---

(1) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص 248 .

(2) الكامل في التاريخ 3 / 259 ، 260 .

(3) يذكر بعض الرواة ـ ومنهم ابن الأثير نفسه ـ أن عبد الرحمن بن ابي بكر كان قد مات قبل معاوية . وقيل : إن يزيد كان غائباً من مرض ابيه وموته ، وإن معاوية احضر الضحاك بن قيس ، ومسلم بن عقبة المرى فأمرهما أن يؤديا عنه رسالته التي ذكرناها في المتن الى يزيد ابنه .

---

2 ـ قال معاوية لما حضرته الوفاة : إن رسول الله كساني قميصاً فحفظته ، وقلم أظفاره فأخذت قلامة فجعلتها في قارورة . فإذا مت فألبسوني ذلك القميص واسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفمي فعسى الله ان يرحمني ببركتها (1) .

3 ـ ذكر الطبري بأسانيده المختلفة عن أبي مسعدة الفزاري قال :

قال لي معاوية : يا ابن مسعدة رحم الله ابا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده .

وأما ابن حنتمة ـ اي عمر ـ فأرادته الدنيا ولم يردها .

وأما عثمان فأصاب من الدنيا واصابت منه ، وأما نحن فتمرغنا فيها (2) .

4 ـ أغلظ رجل لمعاوية فأكثر ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟

فقال : إني لا احول بين الناس والسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا (3) .

5 ـ لام معاوية (4) عبد الله بن جعفر على الغناء (5) . فدخل يوما ومعه بديح ومعاوية واضع رجلا على رجل ، فقال عبد الله لبديح إيهاً ! فتغنى فحرك معاوية رجليه وقال : إن الكريم طروب .

6 ـ قام معاوية خطيباً ـ بعد أن دس السم للأشتر ـ فقال :

---

(1) الكامل في التاريخ 3 / 260 . ومما يلفت النظر حقا أن يحتفظ معاوية بقلامة ظفر النبي ولا يحافظ على سنته ! !

(2) الطبري : « تاريخ الامم والملوك » 6 / 186 . وفي رواية اخرى « اما انا فقد تضجعتها ظهراً لبطن وانقطعت إليها فانقطعت لي » .

(3) الطبري ، « تاريخ الامم والملوك » 6 / 187 .

(4) المصدر نفسه 6 / 187 ، 188 .

(5) هذا الحديث مخالف لما عليه المؤرخون من قداسة عبد الله بن جعفر لما ذكروه من جلالة قدره وتوثيقه . راجع تاريخ الطبري ، والاستيعاب لابن عبد البر واسد الغابة لابن الأثير وغيرها . « الناشر »

أما بعد فإنه كانت لعلي يمينان فقطعت إحداهما بصفين وقطعت الاخرى اليوم (1)

7 ـ سأل معاوية عمرو بن العاص : مابلغ من عقلك ؟ قال : مادخلت في شيء قط الا خرجت منه ، قال معاوية : لكنني مادخلت في شيء قط واردت الخروج منه (2) .

8 ـ لو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت :

إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها (3) .

9 ـ جاء في الطبري ان معاوية كان يأكل في اليوم سبع مرات ويقول : والله ما اشبع وإنما اعيا (4) .

10 ـ روى الواقدي ان عمرو بن العاص دخل يوما على معاوية بعد ما كبر .

فقال له : ما بقى مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا إرب لي فيهن .

وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدي ، فما ادري ايها الين .

وأما الطعام فقد اكلت من لذيذه وطيبه حتى ما ادري ايه الذ واطيب .

فما شيء الذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ومن ان انظر الى بنيّ وبني بنيّ يدورن حولي (5) .

---

(1) العقاد « معاوية بن ابي سفيان » ص 74 . ويقصد بذلك عمار بن ياسر والاشتر .

(2) المصدر نفسه ص 77 .

(3) المصدر نفسه ص 82 .

(4) المصدر نفسه ص 126 .

(5) المصدر نفسه ص 132 .

---

(5)
معاوية في الميزان

كل شيء في الحياة الانسانية هين اذا هان الخلل في موازين الانسانية . وانها لاهون من ذلك اذا جاوز الامر الخلل الى انعكاس الاحكام وانقلابها من النقيض الى النقيض . فمن الناس من يحب ان تتغلب المنفعة على الحقيقة او على الفضيلة ... لانه يرجع الى طبيعته فيشعر بحقارتها اذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة ، ولانه يكره ان يدان الناس او تقاس الاعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولايقدر على التماس المعذرة لها في نقيصتها او في طبيعتها التي لافكاك منها .

وليس ابغض الى الإنسان من احتقاره لنفسه ؛ وليس احب اليه من اعتذاره لها عن حقيقتها . إنه يتعصب في كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفى به الاضطرار الى الاقرار بسبق السابقين له ، وارتفاع المرتفعين عليه .

وإنه ليعترف بالجهل اذا استطاع ان يدعى لنفسه تعلة يسمو بها على اهل المعرفة .

وإنه ليعترف بالعجز اذا استطاع ان ينزل بالقادرين الى « مستواه » بخديعة من خداع النفس .

وإنه ليعترف بالرذيلة اذا استطاع ان يلوث الفضيلة التي يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة ... ويكفى ان ينسب الى العظيم المثالي عمل من الاعمال التي لايقدر عليها النهاز ولايسعى اليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة بينه وبين ذلك العمل العظيم المثالي ... ويضطره الى ذلك وقوفه بين طريقين :

أحدهما غريب يصغره في نظر نفسه ، والآخر مألوف يطرقه كل يوم .

واذا لم يرجح من اخبار فترة النزاع بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان الا الخبر الراجح

عن لعن علي على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان .

فإن الذي يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه في كل مكان وبكل لسان ، ولو لم يرد من اخبار تلك الفترة الا ان معاوية كان يغدق الاموال على الاعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافيا للإبانة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه .

ولكن اخبار الاموال المبذولة لتغيير الحقائق في هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لايمدحون ولايقدحون .

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الإمام احمد بن حنبل أنه سأل أباه عن علي ومعاوية ؟ فقال :

اعلم ان علياً كان كثير الاعداء ، ففتش له اعداؤه عيباً فلم يجدوا ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له (1) .

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين : أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية ، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة عليّ من الحجاز والعراق ، وقد تدخل مصر فيها حيناً وتخرج منها اكثر الاحايين ..

فكانت أعباء الخلافة كلها على علي , وكانت احوال الملك كلها مع معاوية ، مواتية له ، محيطة به فيما يريد .. وفيما لا يريد .

كان الناس مع علي ينظرون الى سنة الرسول .

وكان الناس مع معاوية ينظرون الى هرقل وكسرى ...

---

(1) هذه الفترة وما يليها مقتطفات من كتاب العقاد « معاوية بن ابي سفيان في الميزان » ص 9 ، 11 ، 12 ، 14 ، 16 ، 17 ، 35 ، 38 ، 48 ، 49 ، 70 ، 71 ، 112 - 115 ، 181 ، 182 ، 185 - 191 ، 203 - 205 .

فكان المجتمع الإسلامي مجتمعين .. افترقا غاية افتراقهما في النزاع بين علي ومعاوية .

فكان علي يكبح تياراً جارفا لا حيلة في السير معه ولا في دفعه .

وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاهم بغير مدافعة وبغير حيرة ...

وسبب آخر من اسباب الولع بالحديث عن الدهاء انه اصبح كفؤاً للشجاعة او راجحاً عليها في موازين الصفات

الاجتماعية .

فإذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء ـ وفوق العزاء ـ بشهرة الدهاء .

فالدهاء عندهم مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن ..

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة غير صريحة يبلغ بها صاحبها مأربه .

وأبرع ما برع فيه معاوية من ألوان الدهاء إلقاء الشبهة بين خصومه .

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى اوقع الريبة منه في نفس الإمام .

وحيلة أخرى لانجزم بها ولكننا نشير اليها في مكانها مما رواه الرواة عن الوسائل الخفية التي توسل بها معاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه ..

ومات الحسن ، ومات مالك بن الأشتر .. ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعاً بغير علة ظاهرة فسبق الى الناس ظن كاليقين انها غيلة مدبرة ، وان صاحبها من كان له نفع عاجل بتدبيرها ، وهو : معاوية .

لقد علم المراقبون لطبائع الحيوان ان المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة .

فإذا لمح الحيوان من خصمه انه يجفل منه أخذ في الهجوم .

وإذا عدا خصمه امامه اخذ في العدو وراءه .

وإذا ادركه ولم يجد منه مقاومة تمادى في صرعه وافتراسه .

وقد دخل حجر بن عدي على معاوية ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر

لواجب الحلم والأناة ، فلما دخل حجر محيياً له بالإمارة وزال الحاجز الاول زالت معه الحواجز الاخريات ، ولم يعلم الرجل اين يكون الوقوف . ونظن ان هذه الخليقة قد اوشكت ان تبرز في طوية معاوية من وعيه الباطن الى وعيه الظاهر .

وقد صبر معاوية على الوان من الخضوع في طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس ... واحتاج ان يقول مرة كما جاء في الطبري مستنداً الى سعيد بن سويد : ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا ... ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم .

ثم نشبت الفتنة الوبيلة في خلافة عثمان ، ومعاوية بمعزل منها .

وقتل عثمان فاتخذ مقتله ذريعة للخروج على الإمام وإنكار بيعته .

وأسرف كل الإسراف في التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة .

فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده في كل حديث وفي كل خطاب وفي كل جواب . وعلى قدر اللهج بهذه الفاجعة قبل استقلاله بالخلافة سكت عنها واغفلها بعد ذلك فلم يعد إليها قط لا ليعتذر الى قرابة الخليفة المقتول من سكوته وإغفاله .

وكان معاوية عظيم العناية بأطايب الخوان ، كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية ، وكان يأكل ويشرب في آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجوهر ويأنس للسماع واللهو ولا يكتم طربه بين خاصة صحبه .

وقد ألجأته الحاجة الى إنفاق المال في أبهة الملك والإغداق على الاعوان والخدم الى ارهاق الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع اصحاب الجزية .

فكان من الولاة من نطيعه ومنهم من يحيبه معترضاً .

ومن الولاة الذين انكروا ان تستصفى الاموال لبيت مال الخليفة : والى خراسان الذي كتب اليه زياد يأمره الا بقسم في الناس ذهباً ولا فضة ، فكتب الوالي الى زياد :

بلغني ماذكرت من كتاب امير المؤمنين وإني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب

كتاب أمير المؤمنين .. وليس أضل ضلاله ولا اجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة لانها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة .

فلم يشاركه أحد فيها لان صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الامة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها .

إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهي التفرقة بين الجميع .

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه ببعضهم .. كضرب الشيعة بالخوارج . والعرب بالموالي .. واليمانية بالقيسية .. بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الاموي من غير السفيانيين .

وواضح من هذه التفرقة انه كان يكف يده عن البطش والنكاية في معاملتهم جميعا .. لانه كان يغرى بعضهم ببعض فيستغنى بالوقيعة بينهم عن الإيقاع بهم ، ولكنه ـ على هذا كله ـ كان يؤيد سياسة الإيقاع مهما يكن من قسوتها .

وكان يختار لها من الولاة من يعلم انه يفرط فيها ولا يقتصد في شرورها وبقاتها .

ولا يبالى ان يأخذ البرىء بذنب الاثيم ولا ان ينكل بالقريب قصاصاً من البعيد

وخرج معاوية من الملك بالأيام التي قضاها في نعمته وثرائه ولانقول في صولته وعزه فقد كان يذل لكل ذي بيعة منشودة ذلا لم يصبر من بايعوه على مثله . أما تبعته العامة في امر الملك فأمر جسيم لا تعد له جسامة عمل في عصره لانه نكص بالملك خطوات ... ولو انه أنشأ هذا الملك والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم ... غير ان الناس عرفوا في زمانه فارقا شاسعا بين ولي الامر الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية ... وبين الحكم الذي يجري على سنة المساومة ويملى لصاحبه في البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به في السرف والمغالاة بصغائر الحياة .

* * *

---

(6)
ما ينطبق على تصرفاته من القرآن

سورة آل عمران : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين 3 : 21 ، 22 »

سورة يونس : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون 10 : 7 ، 8 »